من بلاغة الحوار النبوي

إعداد

أ.م/ فاطمة محمد محمد المهدي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بالكلية

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه وحده نستعين

المقدمة

الحمد لله الذي ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١) .

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق ، وأيده بمعجزة القرآن الكريم الذي استقى منه ونهل من معينه العذب الفياض، فأوتي ﷺ جوامع الكلم ونوابغ الحكم .

فامتاز كلامه ﷺ بحسن السبك ودقة التصوير وروعة التعبير ، واحتل كلامه ﷺ المرتبة الثانية بعد بلاغة القرآن الكريم ، والمرتبة الأولى في فصاحة البلغاء والفصحاء .

وهذا بحث موضوعه " **من بلاغة الحوار النبوي** " واخترت من بين درره ﷺ الحوار خاصة لما للحوار من أهمية في حياتنا العصرية ، وفي تربية أبنائنا وفي معالجة الأمور المستعصية بين الأفراد والشعوب ، فهو وسيلة تربوية نبوية نستقي منها ما يفيدنا في حياتنا العامة والخاصة .

والحوار واحد من أهم أشكال التواصل الشفهي وأكثرها شيوعاً في مواقف الحياة اليومية ، فالأصل في الأشياء التنوع والاختلاف وهذا من سنن الله في خلقه ، والاختلاف حالة يجب أن تؤدي إلى التحاور والتعارف لا إلى التناحر والتقاتل ، والفيصل هو أسلوب التعامل مع الاختلاف ، من هنا كان الحوار اكتشافاً إنسانياً عظيماً من خلاله يستطيع الإنسان أن يجعل من الاختلاف ثراءً.

---

(١) سورة الجمعة من الآية : ٢ .

كذلك كان من أسباب اختيار موضوع الحوار النبوي لأن الحوار من أهم مواقف التواصل الفكري والثقافي والاجتماعي التي تتطلبها الحياة في المجتمع المعاصر، لما له من أثر في تنمية قدره الأفراد على التفكير المشترك .

كما أن الحوار من الأنشطة التي تحرر الإنسان من الانغلاق والانعزالية ، وتفتح قنوات للتواصل يكتسب من خلالها المزيد من المعرفة والوعي .

كما أن البلاغة من فنون التعبير في القول وهي أداة من أدواته اللغوية ، ولما في الموضوع من متعة التشويق والتذوق البلاغي ، فكان هذا مغرياً بالمضي في هذه الدراسة والإفاضة فيها ، ولكني وجدت نفسي إمام خضم زاخر بروائع الإبداع البلاغي في الحوار النبوي التي تثري الثقافات وتنمي الملكات ، ولكن لكل شئ غاية ، ولكل أول نهاية فاجتزأت ما يغني قليله عن كثيره .

وسرت في بحثي هذا على منهجين :

المنهج الأول : المنهج الاستقرائي التام :

قمت فيه بقراءة الأحاديث النبوية التي اشتملت على طريق من طرق الحوار وفهمها واستخراج ما فيها من صور بلاغية.

المنهج الثاني : المنهج التذوقي :

الذي بمقتضاه استطعت أن أتذوق الأساليب البلاغية وأبين نوعها وسرها البلاغي :

ومن ثم جاء بحثي في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة .

وثبت للمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات

المقدمة : ذكرت فيها موضوع البحث ، وسر اختياري للموضوع والمنهج الذي سرت عليه .

التمهيد : واشتمل على :

أ — نبذة عن فصاحة الرسول الكريم ﷺ وبلاغته وأسباب ذلك .

ب — تعريف الحوار وأهميته ومكانته في الإسلام والمجتمع المعاصر .

المبحث الأول : ذكرت فيه الأساليب البلاغية في الأحاديث النبوية التي تشتمل على أسلوب الحوار بطرقه المتعددة وهى كالآتي :

١ــ أن يأتي الرسول ﷺ بجملة غريبة تبدو كذلك لأول وهلة فتشد انتباه الصحابة ﷺ وتثير اهتمامهم وتجعلهم يتساءلون .

٢ــــ أن يوجه الرسول ﷺ إلى الصحابة سؤالاً ويستمع إلى أجوبتهم ويناقشهم في هذه الأجوبة ويبين لهم الصواب .

٣ــــ أن يورد الرسول ﷺ السؤال بشكل مشوق يرغبهم في أن يعرفوا الجواب .

المبحث الثاني : ذكرت فيه الأساليب البلاغية في بعض القصص النبوية باعتبار أن الأسلوب القصصي وسيلة من وسائل الحوار النبوي واشتمل على :

ــ نبذه عن بلاغة القصة النبوية .

ــ تحليل لبعض نماذج من القصة النبوية .

ولم اقتصر في بحثي على توضيح الأساليب البلاغية وبيان أسرارها البلاغية بــل بينت ما تهدف إليه الدراسة البلاغية من أساليب تربوية ، فالرسول ﷺ أول وأعظم معلم تربوي في الكون سنَّ مبادئ التعليم ، مبادئ تجعل المعلم ناجحاً، فأساليب التشبيه مثلاً تعتبر من وسائل الإيضاح في علم التربية ، فالمعلم يضرب لتلاميذه مثالاً من الأمثلة كي يستطيع أن يفهم طلابه عن طريقه ما يريد ، كذلك وسائل الإيضاح أو ما يسمى " تقنيات التعليم " وأساليب التوكيد أيضاً من وسائل التثبيت التربوية ، وكذلك التكرار والتشويق والاستفهام كذلك نجد في تعليم النبي ﷺ استعمالاً لوسيلة أخرى هي أوضح ما يستعمله المعلم ، وهى الوسائل التطبيقية العملية.

ونجد الرسول الكريم ﷺ يخرج المسلم المثقف بسنته معلماً ناجحاً يسلك الوسائل التربوية لنشر نور العلم والهداية وذلك ما درج عليه الصحابة ﷺ وسلكه أسلافنا وتفننوا فيه .

وقد اقتصرت على بعض النماذج لكل وسيلة حوارية من وسائل الحوار النبوي .

وبعد :

فهذا البحث ما هو إلا غيض من فيض وقليل من كثير من بلاغة الحوار النبوي .

وأرجو أن أكون قد وفقت في بحثي هذا فما زانه من صواب فمن الرحمن وما شانه من نقص وتقصير فمني ومن الشيطان

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١)

---

(١) سورة هود الآية : ٨٨

التمهيد

أ ـ فصاحة الرسول ﷺ وبلاغته وأسباب ذلك :

امتاز البيان النبوي بأنه بلغ الغاية من الجمال والدقة والبلاغة والسهولة والوضوح .

كما أنه امتد واتسع ليشمل أمور الدنيا والدين والحياة الحاضرة والخالدة، فكان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب بياناً وأعذبهم منطقاً وكان يخاطب كل أمة بلسانها ويقذعها بلهجتها ، ويحاورها بلغتها ، ولا أدل على ذلك من الكتب التي كان يمليها ويبعث بها إلى قبائل العرب يخاطبهم بألفاظهم وعباراتهم فيما يريد أن يلقيه إليهم .

وبعد دراسات توصل العلماء إلى أن محمداً أفصح العرب وكلامه يأتي في المرتبة الثانية بعد بلاغة القرآن الكريم .

والسنة النبوية ما هي إلا بيان للقرآن أو زيادة على ذلك قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[1] .

وكان للسنة النبوية أثر واضح في نمو اللغة العربية وبقائها وسلامتها ، كما كانت السنة النبوية سبباً في وجود كثير من العلوم ، فالفقهاء وجدوا فيها ما يعينهم على استنباط الأحكام وعلماء الحديث شرحوها وفسروها وأدركوا ما فيها من هدى نبوي وحكم نافعة ، ومثل عليا تدفع شأن الإنسان وتبنى المواطن الصالح ، وأهل اللغة أخذوا يدرسونها ويستفيدون من ألفاظها وتراكيبها وأخيلتها وصورها ، وأرباب البلاغة والأدب يترسمون أثرها فيما أحدثت من معان بليغة وتعابير فصيحة وجمل خالدة و" كان الحديث النبوي ثروة في عالم الأدب والعلم تفخر بها الإنسانية على مدى الزمن ، وكان الحديث المعول الذي قضى

---

(١) سورة النحل من الآية : ٤٤ .

على وحشي الكلام وسجع الكهان، وكان الأداة المثلى لخلق اغراض جديدة في عالم النثر"[1] .

وقد وصف الجاحظ كلامه عليه الصلاة والسلام فقال :

" وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف .... واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق"[2] .

وكان هناك أسباب جعلت كلام المصطفى ﷺ في هذه المكانة العالية والمنزلة الرفيعة من البلاغة والبيان :

ومن هذه الأسباب ــ الفطرة التي خلقه الله عليها ومنّ عليه بها قال تعالى ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[3] .

فقد تكفلت رسول الله ﷺ رعاية عليا فهو صفى الله وخليله أوحى إليه برسالته ليكون للعالمين نذيرا فلا عجب أن يكون ذا منطق عذب ، وعبارات بليغة وألفاظ عذبة يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[4] .

---

(١) أدب الحديث النبوي د/ بكرى شيخ أمين ص١٠٤ دار الشروق الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

(2) البيان والتبيين ١٤/٢

(٣) سورة النساء من الآية : ١١٣ .

(٤) سورة آل عمران من الآية : ١٥٩ .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾[1] .

فكانت عبارات الرسول ﷺ تتدفق نوراً فتكون للعالمين نبراساً يستضيئون بهداها .

٢ــ تلمذته على القرآن الكريم الذي امتاز بجمال نظمه وحسن إيقاعه وفصاحة ألفاظه ، وبلاغة معانيه .

ومن ثم نهل الرسول الكريم ﷺ من هذا المعين الذي لا ينضب فكان ينطق بالسليقة ويتكلم بالفطرة .

وكانت كلماته ﷺ ضياءً منيراً من فيض حياته ، وكان كلامه يخرج فيستقر في القلب ويرسخ في الذهن لسهولة ألفاظه وبساطة معانيه ، وبعده عن التكلف والغرابة .

يضاف إلى ذلك أن الله أرسله إلى أمة بلغت القمة في الفصاحة والبلاغة والبيان حتى كانت الكلمة هي بضاعتهم التي يتباهون بها ، ولابد أن يكون المرسل إليهم أكثر بلاغة منهم ، ولذا خصه الله بهذا البيان الفصيح الذي به يستطيع أن يفحمهم ويقيم الحجة عليهم .

كذلك كان لنشأته في قريش أفصح قبائل العرب أثر في بلاغته فبلغة قريش كان العرب يكتبون أشعارهم ويعرضونها في الأسواق التي كانوا يقيمونها في عكاظ وذي المجنة وغير ذلك ، وبلغة قريش نزل القرآن الكريم .

كذلك نشأة الرسول ﷺ في بني سعد موطن رضاعته وبني زهرة موطن أخواله ، وبني أسد أهل زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها وفي بني عمرو الأوس والخزرج موطن هجرته إلى المدينة .

---

(١) سورة النساء آية : ٦٣ .

كل هذه الأسباب وغيرها الكثير جعلت كلامه ﷺ في أرقى مدارج الكمال من البلاغة والبيان .

ـ فقد كان ﷺ يحرص على اختيار الكلمات الموحية الجامعة للمعاني العظيمة الراقية فقد قال ﷺ عن نفسه:" أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ".قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ "(١).

وكانت فصاحة محمد ﷺ توفيقاً من الله ﷻ فهو الذي أرسله إلى قوم فصحاء لهم مقامات مشهورة في البيان والفصاحة والبلاغة ، فلابد أن يرسل إليهم من هو أبلغ وأفصح منهم حتى يقتنعوا به وينقادوا ويخضعوا له .

" والرسول ﷺ معلم مقرر يتخذ وسيلة وأخرى كي يصل إلى قلوب التلاميذ في رفق رحيم وحرص هادف لأنه من أنفسهم ومصطفى لهدايتهم ، ومهيأ بالفطرة ليكون إمامهم وقدوتهم .

فلا عجب أن يتخذ النبي ﷺ طريقة تقريرية يجعلها المنهج الأعم لتوضيح المعالم وتمكين الرسالة .

ومن هذه المظاهر العامة للتقرير " صفاء اللفظ ووفاؤه إفراداً وتركيباً ، ووضوح المعنى وظهور المغزى، ووسائل التشويق والإيقاظ بعثاً للنشاط وإجابة للداعي "(٢).

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ١/٤ الأهرام التجارية ، وانظر تيسير الوصول ١٣٢/٤ .

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د/ عز الدين على السيد ص٦٠ وما بعدها ، دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢هـ .

فالمتأمل لكلامه ﷺ يرى أن ألفاظه لا ثقل فيها ولا تعثر في نطقها، كما يجدها مأنوسة الاستعمال لا غرابة فيها ، فلا خروج عن القياس ولا خضوع للضرورة ،

هذا في الكلمات أما الجمل فهي متآخية متعانقة يأخذ بعضها بأعناق بعض تنساق في أداء المعنى ، والوفاء بالغرض لا تجد غيرها يحل مكانها في أدائه المعنى.

كما أن العبارات محكمة الربط في موضعها.

وكان لصدر الحديث في البيان النبوي صفة غالبة من استعمال أدوات الإثارة والتشويق كأدوات الاستفتاح والعرض والاستفهام .

والبيان النبوي في قمة البلاغة والمطابقة لمقتضى الحال والتناسق مع الفكر تناسقاً رائعاً وميل النفوس إليها والآذان إلى سماعها ، كما يمتاز البيان النبوي بالإيجاز الجميل الحسن الموقع .

وكان الرسولﷺ ــ كثيراً ما يستعمل الإشارة والحركات والأفعال في أقواله لما لهذه الأشياء من دلالات عميقة في إيضاح المعاني وترسيخها في الأذهان .

وعند تحليلنا لنماذج من الحوار النبوي ترى من ذلك الشئ الكثير مما يدل على اهتمامه البالغ بوسائل الإيضاح في تعليم أمته وشد انتباه الأمة بكل ما فيها إلى معلمها ورسولها وهاديها .

كما كان كثيراً ما يستعمل ألفاظاً تفيد اهتمام المتكلم بالخبر الملقى أو الطلب المرغوب ، وتزيل من حوله الشكوك والجحد تثبيتاً لهذا الخبر في عقول المخاطبين ليحقق الهدف المنشود ويبلغ المراد من دعوته .

كما أن الكلمات في الأقوال النبوية لها دور بارز في تصوير المعاني، والفيض عليها ، وأن منها ما يغنى عن صور بكاملها وهى

ليست مجرد حروف مرسومة وأصوات مسموعة ولكنها رسل هداية بالنسبة للمؤمنين وشياطين غواية للكافرين الجاحدين .

وعند تحليلنا لأحاديث الحوار النبوي نرى أن الأقوال النبوية كقطعة الماس التي يعطى كل جانب منها لوناً مختلفاً له رونقه الخاص ، فقد يتزاحم عليه أكثر من لون بلاغي ، وذلك تبعاً للتوجيه البلاغي ، وفروق المعاني والاعتبارات الأخرى ، فالنكات البلاغية تتزاحم ولا تتدافع ، وهذا التزاحم من أعظم سمات الأدب الجيد والأسلوب الراقي .

وعلى سبيل المثال لا الحصر اشتمل ذلك البحث على نماذج لبعض الأحاديث والقصص النبوية التي جاءت على شكل حوار نبوي لنرى ما فيها من بلاغة وبيان .

ب ـ الحوار آدابه ومكانته في الإسلام والمجتمع المعاصر

أولاً : تعريف الحوار

والحَوَار بالفتح ويُكْسَر يقال : كَلَّمْتُه فما رَجَعَ إليّ حَوَاراً وحِـوَاراً ومُحاوَرَةً وحَوِيراً ومَحُورَةً أي جَواباً . والاسْمُ من المُحَـاوَرَة الحَـوِيرْ تقول: سَمِعْتُ حَوِيرَهما وحِوَارَهُمَا . وفي حَديث سَطِيح " فَلَمْ يُحِرْ جَوَاباً " أي لم يَرْجع ولم يَرُدَّ[1] .

والحوار ((المحاورة)) والمُحَاوَرَةُ : المُجَاوبَـةَ ومُرَاجَعَـةُ النُطْـق والكَلاَم في المُخَاطَبَة وقد حَاوَره وتَحَاوَرُوا : تَرَاجعُوا الكَلاَمَ بَيْنَهُم [2] .

والمحاورة : هى المراجعة في الكلام ومنه التحـاور أي التجـاوب وهى ضرب من الأدب الرفيع وأسلوب من أساليبه .

ثانيا : أهمية الحوار البلاغية والتربوية :

الحوار من الأساليب البلاغية الجميلة التي تضـفى علـى الـنص الحيوية والوضوح ، وتثير انتباه المتلقي سواء أكان سامعاً أم قارئاً .

كما أن أسلوب الحوار يدفع الملل والسأم ولا يعطى فرصة لشـرود الذهن ، كما يجعل المتلقي أكثر تجاوباً مع المتكلم، وأشد متابعة لكلامه ، ويجعله أكثر ارتياحاً وتشوقاً لكلامه .

والحوار الجيد لابد أن يحتوى على صفتين أساسـيتين " التركيـز والإيجاز " حيث إن الطول في العبارة الحوارية تميت الحيوية.

كما أن أسلوب الحوار يعطي الكلام نوعاً مـن الإثـارة والوضـوح والحيوية حتى يستطيع المحاور بأسلوب الحوار شد أذهان لسـامعين ، وحملهم على المتابعة المستمرة .

---

(١) تاج العروس للزَّبيدي ٣/١٦٣ .

(٢) لسان العرب لابن منظور ٣/١٠٤ .

كما أن المتلقي يجد في أسلوب الحوار متعة وتشويقاً وذلك لأن الحوار يلبى الحاجات النفسية في حب المعرفة النابعة من حبه لاستطلاع معنى الحوار وأبعاده وما يترتب عليه من مواقف ، وما يخلقه من أحداث وانفعالات .

وللحوار أهمية كبرى وشأن عظيم في حياتنا اليومية فالأم تحتاج إليه في تربية أطفالها وتعليمهم وإرشادهم إلى السلوك الصحيح ، كذلك يحتاج إليه الناس في مجالسهم فالمتحدث الناجح لا يرتضى لنفسه أن يكون هو المتحدث الوحيد ، بل نراه دائماً حريصاً على إشراك الحاضرين معه لإثارة انتباههم واستثارة اهتمامهم بخلق الحوار حتى يكون حديثه ممتعاً ومقبولاً ومسموعاً .

والحوار أسلوب من الأساليب التعليمية التربوية فالدرس الجيد قائم على مبدأ الحوار بين المعلم والمتعلم فالمعلم يتخذ من الحوار وسيلة لأداء المعلومات وإيصالها إلى أذهان المتعلمين .

ومعلمنا الأول هو الرسول ﷺ فهو معلم الأمة وهاديها وقدوتها يتخذ الحوار أداة تعليمية يلجأ إليها ليحرك أذهان الصحابة في الموضوعات التي يريد التحدث إليهم فيها ، حتى إذا انتهى أحدهم إلى نتيجة بسبب هذه الإثارة الذهنية تطلع إلى الرسول ﷺ يصغى لحديثه ينظر : هل وفق إلى السداد ؟

وتشترك في هذه الإثارة الذهنية كل قواه وطاقاته وأعصابه ، وعندئذ يتمكن الجواب من نفسه فضل تمكن ، ويتجلى بأحلى صورة وأروع منظر ، ولا أدل على ذلك من انتشار عنصر الحوار في الكثير من أحاديثه ﷺ [1] .

---

(١) راجع الحديث النبوي مصطلحه ، بلاغته ، كتبه ، تأليف د/ محمد الصباغ ص٩٦ وما بعدها المكتب الإسلامي ــ الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م .

الآداب النبوية في الحوار:

الأصل في الحوار المثالي التزام جانب الحق والأدب وأن يتفهم كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر .

كما أن من آداب الحوار أن يتعاون المتحاوران على معرفة الحقيقة بتبصير كل منهما صاحبه بالأماكن المظلمة ، والتي خفيت عنه ، ولابد أن يتخلى كل من المتحاورين عن التعصب .

وقد لخص الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد مجموعة من هذه الآداب في رسالة الآداب في علم أدب البحث والمناظرة فقال تحت عنوان " آداب المتناظرين "

١ــ أن يتحرزا من إطالة الكلام ومن اختصاره .

٢ــ أن يتجنبا غرابة الألفاظ وإجمالها .

٣ــ أن يكون كلامهما ملائماً للموضوع .

٤ــ ألا يسخر أحدهما من الآخر .

٥ــ ألا يتعرض أحدهما لكلام صاحبه قبل أن يفهم غرضه منه .

٦ــ أن ينتظر كل منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه[1] .

وقد استخدم الرسول ﷺ أسلوب الحوار والمناقشة في تعليمه للناس أحسن استخدام ، وكان من بلاغة الرسول ﷺ في أدائه لأسلوب الحوار أنه كان يراعي العوامل المساعدة على نجاح الحوار باقتناع المتعلم اقتناعاً تاماً.

ومن أمثلته : ما روى عَنْ جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهِيَ صَائِمَةٌ فَقَالَ « أَصُمْتِ أَمْسِ ». قَالَتْ لاَ. قَالَ

---

(١) رسالة الآداب ١٧٦ ، ١٧٧ .

«تُرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غَدًا ». قَالَتْ لاَ. قَالَ « فَأَفْطِرِي » [1].

فالرسول يريد أن يبين لها أنه لا يجوز إفراد يوم الجمعة بالصوم. فلم يقل لها ذلك بطريقة تقريرية أو طريقة تحذيرية أو طريقة تهكمية أو أي طريقة أخرى، ولكن حاورها بطريقة تفهم منها أنها لو صامت يوما قبله أو يوما بعده لكان جائزاً، وبهذا أقنعها ﷺ بحواره.

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّى أُصْبِحُ جُنُبًا وَأَنَا أُرِيدُ الصِّيَامَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « وَأَنَا أُصْبِحُ جُنُبًا وَأَنَا أُرِيدُ الصِّيَامَ فَأَغْتَسِلُ وَأَصُومُ ». فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَسْتَ مِثْلَنَا قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ « وَاللَّهِ إِنِّى لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّبِعُ ». [2].

فقد وضح الرسول ﷺ للرجل أن ما يحدث معه شئ عادي يحدث له ولكل الناس حتى الأنبياء.

إنه النبي المصطفى المختار الذي واتته البلاغة طيّعةً مُختارةً فأُوتي جوامع الكلم، وطبيعي أن يكون رسول الهدى إمام البلغاء لما عهد في كلامه من قوة العارضة، وبيان الحجة ووضوح اللفظ، وصفاء العبارة.

---

(١) سنن أبى داود – كتاب الصوم باب الرخصة فى ذلك. ج٢ ص ٢٩٦ ط: دار الكتب العربي – بيروت بتعليق الألباني. وقال الألباني: صحيح.

(٢) المرجع السابق كتاب الصوم باب فيمن أصبح جنبا فى شهر رمضان ج٢ ص٢٨٥. وقال الألباني: صحيح.

مكانة الحوار في الإسلام والمجتمع المعاصر

والحوار من المنظور الديني يراد به مناقشة بين طرفين أو أطراف بقصد تصحيح كلام أو إظهار حجة أو إثبات حق أو دفع شبهة أو رد الفاسد من الرأي .

وبصفة عامة يمكن تعريف الحوار بأنه محادثة بين طرفين أو أكثر تتضمن تبادلاً للآراء والأفكار والمشاعر ، وتستهدف تحقيق قدر أكبر من الفهم والتفاهم بين الأطراف المشاركة فيه لتحقيق أهداف معينة يسعى المشاركون في الحوار إلى إنجازها .

وبذلك يكون الحوار طريقة للتفكير الجماعي والنقد الفكري الذي يمكن أن يؤدي إلى توليد أفكار جديدة ، ويتسم الحوار بالحركة والبعد عن الجمود ، فهو يعنى الانتقال من حالة إلى أخرى حتى يصل بالفكرة إلى أقصى تطورها ، لذلك فالحوار يجب أن يتسم بالديمقراطية والندية والتواضع .

كما أن الحوار وسيلة من وسائل الاتصال المعترف بها وكي ينجح لابد أن تتوافر فيه شروط معينة منها :

١ــ أن يكون من يقوم بالحوار مؤمناً بقضيته داعياً لأبعادها .

٢ــ أن يكون مؤمناً بقدرة الحوار على تحقيق حل عادل .

٣ــ أن تكون الرسالة واضحة .

٤ــ أن يكون لدى المحاور القدرة على الاستماع للآخرين وأن يجعل الآخر يستمع إليه ، والاستماع هنا لا يعنى استماع الأذن فقط ولكنه استماع البصيرة والعقل[١] .

---

(١) الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه د/ منى إبراهيم اللبودي مكتبة وهبة ــ الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٣م .

فالحوار في ظل التغيرات العالمية المعاصرة هو الضمان للتنسيق والتعاون والتكامل بين الشعوب المختلفة لتحقيق أكبر قدر من المصالح للجميع وهو دعا دول العالم المتقدم إلى تخصيص مقررات كاملة في الدراسات العليا والجامعات لتدريس فتيات الحوار وأخلاقياته من المنظور الثقافي لكل مجتمع .

الحوار في الإسلام

اتفقت الشرائع السماوية في إقرارها المبادئ والتعاليم التي من شأنها صلاح أحوال البشر ، وتحقيق التوازن المطلوب في السلوك الإنساني لإعمار الكون ، وأداء مهمة الاستخلاف في الأرض .

ويعد الحوار من المبادئ المهمة التي أرست الشرائع السماوية أساليبها وآدابها ، فقد كان الحوار البناء وسيلة الأنبياء والرسل في نشر دعوتهم وتبليغ رسالات ربهم وأداء مهمتهم في هداية الناس قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[2] .

وأعطت الشريعة الإسلامية كثيراً من الاهتمام للحوار حيث جعلت الكلمة أعظم أمانة يحملها الإنسان ، قال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3] .

ويقتضي الدخول في حوار حول موضوع أو قضية شجاعة من الأطراف المشاركة في التعبير عن آرائهم وأفكارهم أمام من لقيهم ، كما يقتضي شجاعة في قبول الحق والانصياع له ، حتى وإن كان في جانب الطرف الآخر .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

(٢) سورة النحل من الآية : ١٢٥ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٠٤ .

الفرق بين الجدال والحوار

الجدال أو المجادلة هى أحد صور الحوار ، وهى في اللغة تعنى التخاصم وفي الاستخدام قد يراد بها معنى محمودا أو معنى مذموماً ، وفي القرآن الكريم ، ورد الجدال بالمعنيين المعنى المحمود كما في قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١) .

وفي سورة هود ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (٢) .

وفي العنكبوت : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ (٣) .

وفي المجادلة ورد الحوار والجدال في آية واحدة في قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٤) .

والجدال في هذه الآيات بمعنى الحوار الهادئ في محاولة لإقناع الطرف الآخر بوجهة نظر أو رأى معين تجاه أمر من الأمور ويستخدم فيه أساليب الإقناع المختلفة بإعطاء أمثلة ومواقف وسوق الحجج والأدلة العقلية لدعم الأفكار والآراء المطروحة ، ويكون الجدال محموداً إذا قصد به الوصول إلى الحق ، وإيجاد حلول لبعض المشكلات

---

(١) سورة النحل من الآية : ١٢٥ .

(٢) سورة هود الآية : ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) سورة العنكبوت من الآية : ٤٦ .

(٤) سورة المجادلة آية :١.

والخلافات بين أطرافه .

أما الجدال المذموم فهو الحوار الذي يسعى كل طرف فيه إلى التغلب على الطرف الآخر ، والانتصار عليه بغض النظر عن صحة موقفه ، وهو جدال لا يؤدي إلى التفاهم والتعاون ، وإنما على العكس يؤدى إلى تقطيع الصلات وتفسخ العلاقات بين الناس لأنه يحمل معنى المراء والغضب والمفاخرة والمباهاة وقد يؤدى إلى السباب واللعان في محاولة النيل من الطرف الآخر .

وقد وردت أمثلة كثيرة في القرآن الكريم على هذا النوع من الجدال منها قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٢)

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٣)

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ (٤)

---

(١) سورة غافر آية : ٥ .

(٢) سورة الحج آية : ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) سورة الأعراف آية : ٧١ .

(٤) سورة الحج آية : ٣ .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (٢)

---

(١) سورة لقمان آية : ٢٠ .

(٢) سورة الأنفال آية : ٦ .

خصائص الحوار النبوي وسر الإعجاز والفصاحة فيه

اتسم كلام المصطفى ﷺ عامة وحواراته خاصة بخصائص ميزته عن سائر كلام البشر ومن هذه السمات والخصائص :

١. الاقتصاد والإيجاز في لغة الحوار :

وهذا أمر واضح وبين في كلامه ﷺ ، فلم نجد في كلامه فضلاً ولا زيادة يقتضيها السياق أو الموقف فالرسول ﷺ أداة ربانية وضعت بمقدار وصنعت بصناعة كاملة لا فضل فيها ولا زيادة صناعة خالق كامل ، وقد قال ﷺ واصفاً كلامه النبوي ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[١] .

أى لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أؤمر به .

وقد صفه ﷺ هند بن أبى هالة فقال ؟ لا يتكلم في غير حاجة يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم فصل لا فضول ولا تقصير"[٢] .

وقال الرافعى : " الكلام النبوي جامع مجتمع لا يذهب في الأعم الأغلب إلى الإطالة بل كالتمثال يأتى مقدراً في مادته ومعانيه[٣] .

وكانت العرب تستحسن الإيجاز في الكلام وتعده من الفصاحة ، ويرون كثرة الكلام من العيوب .

والإيجاز في حواره ﷺ إيجاز مفيد ومستقل بنفسه ، ومهما بلغ الاقتصاد اللغوي في استهلاك الألفاظ فهو يعطيك تمام المعنى وفائدته وهذا ما لا يستطيعه أدب الدنيا وليس أدباء العرب وبلغاؤهم .

---

(١) سورة ص من الآية : ٨٦

(٢) المعجم الكبير لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ١٥٦/٢٢ ح ٤١٤ ، مكتبة ابن تيمية القاهرة ــ مصر الطبعة الثانية ومطبعة أخرى بتحقيق : حمدي بن عبد المجيد دار إحياء التراث بيروت ــ لبنان .

(٣) تاريخ آداب العرب ٣٩٢/٢ طبعة دار الكتاب العربى ــ بيروت ــ لبنان .

وكان ﷺ في أفعاله وسننه يوحى بالإيجاز والاختصار وكان إذا بعث أميرا قال : " اقصر الخطبة ، وأقل الكلام ، فإن من الكلام سحراً "[1] .

والإيجاز والاقتصاد معلم واضح في سننه ﷺ وآدابه وأقواله أيضاً من ذلك قول : "تجوزوا في الصلاة فإن خلفكم الضعيف والكبير وذا الحاجة "[2] .

ومن ذلك قوله : " أسمع بُكَاء الصَّبي فأتجوّز في صلاتي "[3] .

٢ـ خفة ألفاظ الحوار وسهولتها :

فقد كان ﷺ يبنى أسلوبه الحواري على ألفاظ خفيفة يوقعها في أذن المتلقي يتحسس خفتها في سبك جميل يقرع الأذن قرعاً جميلاً خفيفاً يلج إلى قلب المتلقي ، فألفاظه تأتى دائماً سهلة خفيفة تهون خطب الحرب ، وتبعث الهدوء والطمأنينة في نفس متلقيها .

والألفاظ تأخذ مساحة كبيرة في قلب وأحاسيس الإنسان لما فيها من خفة وسهولة.

٣ـ ومن خصائص الحوار النبوي التعبير عنه بالتصوير البياني :

والتصوير البياني من استعارة وتشبيه وكناية مما يجعل الجمادات والأشياء والمعاني تتجسد وتتجسم بشكل كائنٍ بشري حي يتحرك ويتفاعل مع الأشياء ومن ذلك تشبيه الرسول الكريمﷺ للنخلة بالمسلم في عموم النفع في قوله : " « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِى مَا هِىَ ؟ » قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن عمر راوي الحديث فَوَقَعَ النَّاسُ فِى شَجَرِ الْبَوَادِى. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَوَقَعَ فِى نَفْسِى أَنَّهَا النَّخْلَةُ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢/٣٠ ح ١٥٢٣ .

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١٤/١٢ ح١٢٣٣٨ .

(٣) النهاية ١/٣١٥ " ج و ز "

فَاسْتَحْيَيْتُ ثُمَّ قَالُوا حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَقَالَ « هِيَ النَّخْلَةُ»[1].

فقد جعل النخلة هنا مليئة بالحب والخير والمودة والتعاون " وإذا كان للكلمة قيمة فنية فإنها متأتية مما يبثها منشؤها فيها من حرارة ونبض ، فهو ينقلها من عالم السكون إلى عالم الحركة ولا تكون فيها حركة وحياة إلا إذا اقترنت وأنست بما يحاورها من غيرها ، وتركبت في صيغ تعبيرية تأنس لها القلوب ، وتلتمع ببريقها العيون وتطرب لجرسها الأسماع فينشرح لها صدر المتلقى ويهتز وجدانه ، وهذا ما تلمسه في كلامه ﷺ في صياغة وتركيب المفردات .

وإذا كانت البراعة لا تعتمد فقط على رصف الكلمات وتأليف الألفاظ وصياغة العبارات ، وإنما في شحن هذه التراكيب بالأحاسيس والانفعالات والمعارف التى ينفعل لها ذهن المتلقى وتستجيب أفكاره ونفسه لهذا الكلام ، وهذا النظم وهذا التركيب الفنى الذي انفرد به ﷺ أشبه بالإعجاز اللفظي[2] .

وهذا هو مضمون نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ت٤٧٤هـ والتي تفيد أن لا فصاحة في اللفظة المفردة المجردة وإنما تظهر قيمتها عند النظم والتركيب ، وقد وجدت الصورة البيانية في كلام المصطفى ﷺ طريقها لقلب المتلقى ومشاعره مما لا يمكن لأحد من البشر تركيب مثل كلامه ﷺ .

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم ج ١ ص ٣٤ .

(٢) فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته د/ عادل البدرى ص١٦٩ ـ ١٧٠ دار الأثر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

٤ ومن خصائص الحوارات النبوية ونسر الإعجاز فيها النظم والتركيب أي " الأسلوب :

وهو طريقة عمل ووسيلة تعبير عن الفكر بواسطة الكلمات والتراكيب البلاغية .

وعرف الأسلوب بأنه " فن من الكلام يكون قصصاً أو حواراً تشبيها أو مجازا أو كناية ، تقريراً ، أو حكماً وأمثالاً ، فهو يشمل الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للإقناع والتأثير "[1] .

والأسلوب نفس الفنان والأديب والمبدع ولو تتبعنا أساليبه عليه الصلاة والسلام لوجدناها مخالفة لأساليب العرب بما تتوشح ألفاظه فيها من جدة وطرافة وتماسك في بنائها ..

والأسلوب يمكن أن يقال بأنه الطريق أو الوجه أو المذهب في الكلام والكتابة ، ويفرغ ويصب في قالب منسوج بألفاظ وتراكيب لغوية وهذا النسيج أو الأسلوب له بعد وخصيصة مميزة في الحديث النبوي .

٥ ومن خصائص ألفاظ الحوار النبوي طعانها ونصاعتها :

وإشراق الألفاظ النبوية وإضاءتها معلم من معالم فصاحته فنجد لمفرداته ﷺ الإثارة والإضاءة التي يبصرها الناظر ، ويجسد هذه الأنوار ذو الأذن المرهفة الحس ، فيجد هذا الإشراق واللمعان ، كأنه قد طرد ظلام النفس وجفاء القلب .

والأديب المبدع هو الذي يضع الكلمات والجمل في إطار شعورى جمالي خاص ويشحذها بطاقات هائلة من المعاني ويلبسها حللاً جديدة من الدلالات عن طريق المجاز أو عن طريق نقلها من المعاني الحسية إلى دلالات معنوية أرفع ، أو ينقل دلالاتها المعنوية إلى محسوسات قابلة

---

(١) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية ١٨٦/٢ د/ حسين الحاج حسن طبعة مؤسسة الوفاء ــ بيروت.

للتشخيص والمثول ، ويبث في هذه الكلمات من روحه المتألقة الصافية روحاً أخرى جديدة فتصبح لها نكهتها المتميزة من خلال أنماطها التعبيرية الجميلة ، فتصبح الكلمات في نتاجه الإبداعي أكثر جلاءً ووضوحاً وإشعاعاً في دلالاتها وإيحاءتها وهذا ما لمسناه في نصوص الحوار النبوي.

أما الكلمات الباهتة الخالية من التأثير والوميض والإشراق فيكاد يخلو كلامه منها مطلقا .

وإذا وجدنا في كلامه ﷺ رشاقة العبارة ووضوح اللفظ وفصاحة في تركيب العبارة وإبانة للمعنى وتكراراً وتوكيداً وتحقيقاً لما يراد تكراره وتوكيده فإننا نجد نفس المعلم القائد الذي يطوع البيان لأغراض تعليمية تربوية تجعل اللغة وسيلة لا غاية،للأخذ بيد الإنسان نحو العلو والكمال .

وتصور ابن جنى أن العرب إنما تحلىً ألفاظها وتدبجها وتَشيها وتزخرفها عنايةً بالمعاني التي وراءها وتوصُّلاً بها إلى إدراك مطالبها ثم قال : وقد قال رسول الله ﷺ " إنّ من الشعر لحكما وإنّ من البيان لسحراً[1] فإذا كان رسول الله ص - يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم التي جُعلت مصايد وأشراكاً للقلوب وسَبَباً وسُلَّما إلى تحصيل المطلوب عُرف بذلك أن الألفاظ خَدَم للمعاني والمخدوم لاشكّ أشرفُ من الخادم[2] .

٦- من الخصائص الألفاظ النبوية سر الإعجاز والفصاحة فيها :

تآلف الألفاظ النبوية مع لغة العصر الذي ولدت فيه ومع العصور التى تليه اكتست الألفاظ النبوية ثوب الزمان الذي ولدت فيه ، فلم يكن

---

(١)أمالي الصدوق للشيخ الصدوق محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمي ت ٣٨١هـ ٧١٨/٦ نشر مؤسسة قم إيران الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ ومطبعة مؤسسة الأعلمى ــ بيروت .

(٢) الخصائص ٢٢٠/١ تحقيق محمد علي النجار المكتبة العلمية ــ بيروت ــ لبنان .

يتكلم بلغة عصور عصف بها الدهر وطمس الزمن على آثار ناطقيهـا ، فلغتهﷺ حية ذات حركات متناسبة مع زمن ولادتها وبيئة ذلـك الـزمن الذي حفظ لنا هذه الألفاظ لقوتها وسرها في أذن وقلب المتلقي .

وقد سجل تاريخ الأدب لنا ألفاظاً ولدت في أزمنتها لم تكن متناسبة مع لغة عصرها فمجتها آذان المتلقين ولم تجد لها سوقاً فنيا كاسـتخدام الغريب بسبب الحرص على ما هو نادر أو بسبب فنى كمـا فـي قيـود الوزن والقافية فتكلف اللفظ الغريب يعد عيباً لا سبيل إلى تسويغه ، مـا دمنا نؤمن بأن اللغة مجرد وسيلة لتعميق الهدف أما أن تتخذ منها غاية في حد ذاتها فأمر ينتسب إلى العبث واللهو مما لا يتفق مع مهمة الحياة إسلامياً وإنسانياً "[1] .

واللغة الفنية الخالدة هي التي يمكنها أن تمتد على أزمنة سـابقتها وأزمنة لاحقة لها فألفتها وعدم تنافرها مع الزمن الماضي واللاحق لهـا يكسبها قوة ويضعها في سلم الكلام الفصيح ، فقوله " كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى "[2]

مألوف في زمنه وموضع اهتمام واحتفاء المتلقين لها ومـا زالـت تلقى ظلالها في لغتنا المعاصرة ، وهى قادرة أن تمتد وتعبر أزمنتنا هذه إلى أزمنة لاحقة تدركها أجيال أخر بهذه القوة والألفة .

وقوله : « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ »[3] شاهد على ألفة ألفاظه مع عنصر الزمن وانصهارها فيه ، فلو دفعتها إلى أزمنة مضت قبله لوجدت

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ص٣ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه و سلم ج٦ ص ٢٦٥٥

(٣) صحيح البخاري كتاب الزكاة باب على كل مسلم صدقة فمن لم يجد فليعمل بالمعروف ج٢ ص٥٢٣

لها موضعها هناك ولو ترامیت بها إلى قيام الساعة لوجـدتها حاضـرة ومألوفة في ذهن الإنسان .

وقوله : ... فهو مألوف في زمان ولادته ، ونقلته عصور الـزمن إلى أزمنة لاحقة بعده ، وما زالت في ثوبها الذي صاغها ﷺ تأتلف مع ذهن المتلقى الذي لا يحمل من اللغة والثقافة حداً ضئيلا ليدرك المعـانى التى حملتها الألفاظ النبوية .

المبحث الأول

الأساليب البلاغية في الأحاديث النبوية التي تشتمل على أسلوب الحوار بالطرق الآتية:

١ـ أن يأتي الرسول ﷺ بجملة غريبة.
٢ـ أن يوجه الرسول ﷺ إلى الصحابة سؤالا.
٣ـ أن يورد الرسول ﷺ السؤال بأسلوب مشوق يرغبهم في أن يعرفوا الجواب.

ومن بلاغة الرسول ﷺ أنه كان يستخدم عدة طرق في إثارة الحوار مع الصحابة ﷺ ومن ذلك :

١ـ أن يأتي بجملة غريبة ـ تبدو كذلك لأول وهلة ـ وأحياناً تكون معارضة لما تعلم الصحابة من أحكام هذا الدين فتشد انتباههم وتثير اهتمامهم وتجعلهم يتساءلون فينشأ من ذلك حوار بلاغي جميل .

أنهم جيل مثالي ربوا تربية إسلامية فاضلة فقد ربوا في مدرسة النبوة مدرسة محمد ﷺ فهم لا يسكتون على أمر يرونه غريباً أو متعارضاً مع ما فهموا من أحكام دينهم .

ولنضرب الأمثلة على ذلك:

ما روى عَنْ أَنَس بنِ مالكٍ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:« انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » فقال رجل : يا رسولَ الله أنصرُه إذا كان مظلوما، أفرأيتَ إن كان ظالما : كيف أنصرُهُ ؟ قال : تحجزُه أو تمنعُه عن الظلم ، فإن ذلك نَصْرُهُ»[1] .

فقول الرسول ﷺ " انصر أخاك ظالما ... " جملة غريبة شديدة الغرابة لا يمكن لمسلم تربى في مدرسة النبوة المحمدية أن يقر مثل ذلك، لأنه يراها متعارضة مع ما فهمه من أحكام وتعاليم هذا الدين الذي يعاف الظلم وينهى عنه ويحاربه ويأباه .

فلابد أن تثير هذه الجملة الغريبة في نفوس المتلقين الصحابة أنذاك استغراب واستيضاح فينطلق صوت رجل سائلاً في أدب وجرأة أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ وهنا يأتي التوضيح والبيان فيستقر الجواب في النفس كل استقرار فقد وجهنا الرسول الكريم ﷺ عن طريق الأسلوب

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإكراه باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه ج ٦ص ٢٥٥٠ حديث رقم ٦٥٥٢.

الحواري السابق إلى وجوب نصرة الأخ المسلم والوقوف بجانبه على أي حال ، وبين الطريقة المثلى في ذلك في أسلوب موجز بليغ تجلت فيه جوامع كلمه ﷺ .

ومن الحديث السابق يستخرج أكثر من أسلوب بلاغي من ذلك الأسلوب الإنشائي الطلبي الذي جاء على صيغة الأمر الذي كان عرضه النصح والإرشاد من الرسول ﷺ لصحابته الكرام .

وحذف الرسول الكريم الفاعل وهو المسند إليه في قوله " انصر" فالفاعل محذوف وجوباً تقديره انصر أنت للإيجاز والاختصار وللعلم به من سياق الكلام .

وجملة: " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " جملة غريبة لم يطور الرسول في لفظها ولكنه فتح معنى جديداً فيها ، وذلك أن ردع الظالم هو نصرة له ، ونصرة للمظلوم في وقت واحد ، والرسول ﷺ كان يطوع لأوامر الله ونظام شرعه الجديد كل شئ في الحياة العربية وتقاليدها ، فيقضى على مالا مجال لإصلاحه ، ويوجه ما يمكن التعديل والتصحيح فيه ويطور إلى الأفضل كل ما يتوجب فيه هذا التطوير "[1].

وجاء التعبير بلفظ " أخاك " المشعر بالحب والرحمة ليكون ذلك دافعاً للمسلم على معونة أخيه باذلاً معه أقصى الجهد ، لأنها كالسبب المباشر أى انصره لأنه أخاك .

وفي التعبير بهذا اللفظ استرحام .. تجعل النصرة عملاً نابعاً من القلب وليس تكليفاً شاقاً مفروضاً يؤدى في غير رغبة بل لمجرد طاعة الأمر .

---

(١) أدب الحديث النبوي ص٩٠ .

وعبر النظم القرآني "بالأخوة" في مواطن كثيرة لغرض الاسترحام والاستجابة النفسية لدواعي الحب والرحمة .

ففي بغي المسلمين بعضهم على بعض أمر الإسلام برد المعتدى كما أمر بعد ذلك بالصلح لتتلاشى جذور الكراهية والعداوة قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[1] .

وفي القصاص حبب الله العفو عن القاتل من أولياء القتيل لأنه أخ لهم حيث ذكر القاتل بلفظ "اخيه" تحبيباً للعفو في قوله ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[2] .

فلفظ "اخاك" في الحديث أعذب نطقا وأحلى جرساً .

فالنبي ﷺ ربط هذه الأخوة برباط وثيق هو الإسلام ، وأخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب .

وعبر باسم الإشارة البعيد "ذلك" في قوله : "فإن ذلك نصره" لقصد تعيينه وتمييزه أكمل تمييز بإحضاره في ذهن السامع بواسطة الإشارة حساً .

وتنكير قوله "رجل" لعدم العلم به من راوي الحديث .

وقوله:"يا رسول الله" نداء غرضه للتعظيم وأضاف قوله:"رسول" إلى" الله" لفظ الجلالة للتشريف من شأن المضاف والمضاف إليه، وفي ذلك تشريف للرسول ﷺ وتعظيم له ، وتأكيد لنصرة الله لرسوله الكريم فهو الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وفي قوله : "أرأيت إن كان مظلوماً كيف أنصره ؟"

---

(١) سورة الحجرات من الآية : ١٠ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧٨ .

أسلوب إنشائي جاء على طريق الإستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى وهو التعجب والدهشة والاستغراب .

وجملة " فإن ذلك نصره " جملة خبرية مؤكدة الغرض منها تأكيد مضمون الكلام ومحتواه .

وفصلت جملة " أرأيت إن كان ظالماً ... " عن جملة " أنصره إذا كان مظلوماً" لاختلافها خبراً وإنشاء فالجملة الأولى خبرية لفظاً ومعنى والجملة الثانية إنشائية لفظاً ومعنى وعطف الجملة الخبرية على الإنشائية والعكس لا يصح .

وبين قوله : " ظالما او مظلوماً " محسن من المحسنات البديعية المعنوية وهو الطباق ، وقد أكد الطباق المعنى في النفس ورسخه في الذهن ، لأن الضد أقرب حضوراً بالبال عند ذكر ضده .

والطباق من أهم أسباب بلاغة الكلام ، وهذه لها منزلة عالية فهي طريقة محببة إلى النفوس يقود إليها الطبع ، وتساعد على تجلية الحقائق وتمييزها ، فجمال الشئ يعرف بقبح ضده ، كما أن عظمته تعرف بحقارة مقابله فهذا الأسلوب يتناسب وحال النفس البشرية التي تنزعها إلى المتناقضات .

وبين قوله : " ظالماً والظلم ومظلوماً " جناس طلبه المعنى واستدعاه فوقع موقعه في قلب وعقل المتلقى .

* ومن ذلك ما روى عن نفيع بن الحارث الثقفي قال رسول الله ﷺ «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفِهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ "[1].

فجملة " المقتول في النار" جملة تثير استغراب السامع وتثير اهتمامه فيحمله ذلك على السؤال متعجباً ، ويأتيه الجواب ويتولد من ذلك كله حوار مركز جميل .

فانظر إلى بلاغة كلامه ﷺ ، وكيف طابق الكلام حال السامعين حيث جاء الحديث على صيغة الأسلوب الخبري الخالي من التأكيد لقصد إعلام السامعين بمضمون الكلام ومحتواه .

وعندما احتاج الرسول ﷺ إلى تأكيد عبارته النبوية جاء بالجملة الخبرية المؤكدة في قوله : " إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ ... "

ومن هنا جاءت مناسبة الكلام للمقام الذي قيل فيه ، وناسب حال السامع الذي ألقى إليه .

وفي الحديث مدود طويلة أضفت لوناً من ألوان التنغيم " المسلمان سيفيهما . القاتل ــ المقتول ...

كما نجد سهولة في مخارج الحروف وتباعدها والتنوين في قوله : " حريصاً " يعطى الكلام رنة عالية تضفى على الأسلوب سحراً وجمالاً .

هذا بالإضافة إلى ما اشتمل عليه هذا النص من انتقاء الألفاظ في التركيب والترتيب فتحققت له كل معاني البلاغة التي من أسمى معانيها الإيجاز .

---

(١) رواه البخاري ١/١٢٠ باب ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ صحيح مسلم ٨/١٧٠، رياض الصالحين باب الإخلاص وإحضار النية ص١٥ .

وجملة « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِى النَّارِ » جملة خبرية تفيد التحذير أي التحذير من التقاء المسلمين ، بسيفيهما وإشهار كل واحد سلاحه في وجه أخيه المسلم .

و"ال" في "المسلمان" للاستغراق لتشمل جميع ما يندرج تحت هذا اللفظ من أفراد .

واللام في " النار" للعهد أى النار المعهودة المعروفة التى سبق الحديث عنها كثيراً في القرآن الكريم والحديث الشريف قبل ذلك .

والتعبير بضمير المتكلم في قوله : " قلت" ، لأن المقام للمتكلم فالقائل هو راوى الحديث .

وعبر باسم الإشارة " هذا " لتمييز المشار إليه أكمل تمييز بإحضاره في ذهن السامع بواسطة الإشارة حساً .

وقوله : " فما بال المقتول " أسلوب إنشائى جاء على صورة الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى وهو التعجب من حال هذا المقتول كيف يكون في النار وهو لم يَقْتُل ؟ وإنما قُتِلَ ، وجاء الجواب الشافى الكافى بعد ذلك من أفصح الخلق مبيناً سبب دخوله النار بجملة خبرية مؤكدة أبلغ تأكيد .

ونرى في الحديث الشريف أن الجمل التى بدئت بأقوال فصلت عما قبلها مثل قوله : " قلت يا رسول الله" وقوله : قال : " إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ " وذلك لشبه كمال الاتصال وهو أن تكون الجملة مصدرة بلفظ " قال " مفصولاً عما قبلها[1].

فتفصل الجملة الثانية عن الأولى كما يفصل الجواب عن السؤال لما بينهما من الاتصال والربط المنافي للعطف المقتضى للحاجة إلى العاطف.

---

(١) يراجع دلائل الإعجاز ص١٦ وما بعدها

والحديث كناية عن التحذير من إشهار المسلم السلاح في وجه أخيه المسلم وأن يكون المسلم نصرة لأخيه المسلم كما سبق ذكر ذلك في الحديث السابق ، لأن العداوة والبغضاء والمشاحنة وغيرها من أخلاق الجاهلية التي قضى عليها الإسلام .

وحبذا لو تأسينا بسنة المصطفىﷺ وعملنا بها . فما تفكك المسلمون وما ضعفوا وما استكانوا إلا بمعاداة بعضهم البعض كما هو الآن في فلسطين وغيرها .

وبين قوله : " القاتل والمقتول " محسن من المحسنات البديعية المعنوية وهو الطباق الذي أكد المعنى وجمل الأسلوب وحسنه فذكر المعنى وضده مما يظهر المعنى ويقوى الأسلوب فالضد يظهر حسنة الضد .

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ أُنَاسًا قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ قَالَ : " أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ به ؟ إِنَّهُ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا ، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا "[1] .

ففي قوله ﷺ " وفي بضع أحدكم صدقة " غرابة تثير سؤالا والسؤال يتبعه جواب ويتولد من ذلك حوار مركز جميل ، وهذا ما حدث إذ أن الصحابة ﷺ لم يستطيعوا السكوت عليها لأن الذي وقر في أذهانهم أن الأجر إنما يكون على الواجبات التى يتحمل المسلم في أدائها شيئاً من

---

(١) رواه مسلم٣/٨٢ كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، وانظره في رياض الصالحين باب في بيان كثرة طرق الخير .

المشاقة ومجاهدة النفس والتغلب على وساوس الشيطان ؛ أما الشهوات التي يمارس الإنسان فيها غريزته ويجد فيها متعة فكيف يكون له فيها أجر إن أتاها ؟ فقال أيأتي احدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟

فهذا استفهام إنكاري تعجبي .

فبين لهم رسولهم الكريم ﷺ أن تصريف الشهوات في السبيل الذي شرعه الإسلام وهو طريق الزواج الشرعي عمل محمود طيب يثاب فاعله عليه ، وجاء لهم بما يقنعهم بذلك عن طريق الدليل المذكور وهو إن وضع هذه الشهوة في الحرام كان مؤاخذاً مذنباً ، وكذلك فإن من يجاهد نفسه ويمنعها عن الحرام ويلزمها بالالتزام بما أحل الله من أحكام الشرع ولا يتعدى حدوده مثاب مأجور .

فإتيانه ﷺ بهذه الجملة أثار حواراً مركزاً حرك السامعين وجعلهم أكثر تجاوباً .

بدأ الرسول الكريم ﷺ كلامه بأسلوب من الأساليب الإنشائية الطلبية وهو الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى وهو التقرير وهو حمل المخاطبين على الإقرار بما يعرفونه وذلك في قوله " أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ به ؟ "

وتنكير (تسبيحة وتهليلة وتكبيرة وتحميدة) وإفرادهم أيضاً يشير إلى الوحدة أى تسبيحة واحدة وتهليلة واحدة وتحميدة واحدة .

والبدء بالأقل يعطى المبالغة ... فإذا كان هذا جزاء من سبح وهلل وكبر وحمد الله مرة واحدة فكيف بمن فعل ذلك كثيراً .

وعلى العكس من ذلك ترى أن تنكير قوله " صدقة " للتعظيم والتفخيم أى صدقة عظيمة كبيرة وخاصة أن هذه الصدقة من واسع الفضل والمغفرة وهو الله سبحانه وتعالى .

وجعل المسند إليه في الجملة لفظ "أحدكم" ، وهو الأحد الدائر الذي يشمل الجميع لأنه مضاف إلى ضمير الجميع من المخاطبين .

ولفظ أحد يتضمن معان كثيرة فهو يطلق على الرجل والمرأة والصغير والكبير والقوي والضعيف والحر والعبد والجاهل والعالم إلى غير ذلك من المعاني التى يشملها هذا اللفظ .

وفي قول الصحابة : نداء غرضه التعظيم وإضافة رسول إلى لفظ الجلالة للتشريف والتعظيم أيضاً .

وقولهم : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ استفهام إنكاري الغرض منه الاستغراب والدهشة والتعجب .

واستعمل أداة الاستفهام الهمزة لأن الهمزة أكثر أدوات الاستفهام دلالة على الإنكار .

والتعبير بضمير التكلم "نا" لأن المقام للتكلم وجاء به جمعاً للدلالة على أن الذين قالوا ذلك أناس كثيرون عبر عنهم راوي الحديث بقوله : "أناسا" للدلالة على كثرتهم .

وتنكير قوله "اجر" للتعظيم أي أجر عظيم .

والاستفهام في قوله" أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ " خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى وهو التقرير وهو حمل المخاطبين على الإقرار بما يعرفونه .

ونجد أن الحديث قد اشتمل على ألوان جميلة من الفصل والوصل من ذلك عطف الجمل الآتية على بعضها وهى " يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ " لوجود المناسبة بين هذه الجمل لاتفاقها في الخبرية لفظاً ومعنى مع عدم وجود مانع من الوصل فبين الجمل توسط بين الكمالين والجمل السابقة متساوية متوازية

في أفعالها وحركاتها وسكناتها مما يعطى الكلام سحراً وخلابة فيسهل حفظه ويستقر في النفس كل استقرار .

وكان العطف لمثل ذلك في قوله الرسول ﷺ :"إِنَّهُ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكبيرَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَحميدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً "إلخ.

ونجد أن جمل القول وهى الجمل المصدرة بلفظ " قال " جاءت مفصولة لشبه كمال الاتصال .

والفصل والوصل من الأساليب البلاغية الجميلة التى تضفى على الأسلوب حسناً وجمالاً وهذا الباب من أدق أبواب علم المعاني مأخذاً ، لا يعرفه على وجهه الصحيح ولا يحيط علماً بكنهه إلا من أوتى في فهم لطائف كلام العرب العرباء طبعاً مستقيماً ، ورزق في درك أسراره ذوقاً صحيحاً ، ولهذا قصر بعض العلماء البلاغة على معرفة الفصل من الوصل [1] .

وقوله " وفي بضع أحدكم صدقة " كناية عن الجماع ، وكذلك قولهم: " شهوته "

فانظر إلى بلاغة الرسول ﷺ وروعة ألفاظه حيث نأى عن الألفاظ التى تخدش حياء السامعين بهذه الكناية اللطيفة التى تتجلى فيها البلاغة النبوية وروعة البيان ، وإن من البيان لسحراً .

كذلك كنى الصحابة ﷺ عن ذلك بقولهم : " شهوته" ، وهى من الكنايات البليغة إلا أنها لا تصل إلى بلاغة كنايتى المصطفى ﷺ واشتمل الحديث على محسن من المحسنات البديعية المعنوية وهو الطباق بين قوله : " حرام وحلال " و " أجر ووزر"

---

(1) مفتاح تلخيص المفتاح ٣٠٣ .

ولم يأت الطباق هنا لمجرد الحلية والزينة اللفظية التي يمكن الاستغناء عنها ، وإنما كان له دوره وبلاغته في الأسلوب النبوي وسياق الحديث .

كذلك نرى أن من بلاغة الرسول في الحديث السابق استعمال المقابلة في قوله " وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ " الذي أحدث في النفس تحركاً ، وهذا مما يؤكد المعنى ويجمل الأسلوب والطباق والمقابلة من المحسنات البديعية المعنوية التي تؤكد المعاني وتقررها في ذهن المخاطب لأن الضد يظهر حسنه الضد وبضدها تعرف الأشياء .

وهو في البيان النبوي " يستعمل لاستيعاب الحكم للمتقابلات ، وذلك ظاهر الشأن في التقرير أو يستعمل للتقابل بين الحكمين إظهاراً وإيضاحاً لكل من المقامين ترغيباً " (١) .

وعن عفة اللسان وأهميتها في الإسلام : روى عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قِيلَ يا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ "(٢) .

في هذا الحديث الشريف يبين لنا الرسول الكريم ﷺ ما ينبغي أن يتصف به المسلم من خلق وما يجب أن يكون عليه من بر نحو والديه .

وقد بين هذا الحديث بأوضح بيان ما ينبغي أن يتقى من عقوقها وإيذائهما بأي نوع من أنواع الإيذاء ، قل أو كثر قصد أو لم يقصد ، ووجها به أو لم يواجها به ، فيقول : إن من أكبر الذنوب إن يشتم الرجل

---

(١) الحديث النبوي من الوجهه البلاغية د/ عز الدين على السيد ٢٣٢ دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣م .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب لا يسب الرجل والديه ٥/ ٢٢٢٨ .

والديه ويستعظم الصحابة ﷺ هذا الفعل الشنيع ويستبعدونه لأن الطبع السليم يأباه ، فيقول قائلهم : "وكيف يلعن الرجل والديه" والاستفهام هنا إنكاري للاستبعاد ، فقد استبعد الصحابة أن يحدث ذلك .

ولذلك بين لهم الرسول الكريم ﷺ أنه ليس شرطاً أن يتعاطى سببهما مباشرة فقد يتسبب فيه فيسب أبا رجل أخر فيسب هذا الآخر أباه ويزيد المسبوب شتم أم الشاب أو يسب أمه فيسب أمه فمن فعل ذلك فكأنما سب والديه ، فما أرفع آداب الإسلام وما أبعد المسلمين عنها في هذا العصر الذي نسمع فيه عن ضرب الأمهات وذبح الآباء من أجل غرض الدنيا الزائلة الفانية .

فاللهم نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة يا رب العالمين .

وفصلت جملة " أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والِدَيْهِ " عن الجملة التي قبلها وهى جملة " إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبائِرِ"

لأن الجملة الثانية تفسير وبيان للجملة الأولى لخفائها فالأولى فيها خفاء وإبهام والثانية توضح هذا الخفاء .

كذلك عطف الرسول الكريم ﷺ جملة " وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ"على جملة يا رسول لاتحادهما في الإنشائية لفظاً ومعنى وتدل " الواو " على أنهم صدقوا ولكن يطلبون الكيفية وكيف لا وهو الصادق الأمين الذين لا ينطق عن الهوى وعطف جملة "ويسب امه" على جملة "ويسب اباه" لاتحاد الجملتين في الخبرية واتحاد المسند والمسند إليه ووجدت المناسبة بين الجملتين ولم يوجد مانع من العطف .

وهذا العطف للتوسط بين الكمالين .

ونجد أن لفظ " الرجل " وهو مسند إليه ذكر في الحديث أربع مرات وكان يكفى الإضمار في المواضع التي ذكر فيها لفظ الرجل مؤخراً ،

ولكن لاستعظام هذا الفعل الشنيع وهو سب الوالدين جاء بالمسند إليه لذم وتحقير من يفعل ذلك .

وقد جاء بلفظ " والديه " ثم والمقصود بهما الأب والأم ثم ذكر كل واحد على حدة بعد ذلك في الحديث وهذا من باب التوسيع وهو لون من ألوان الإطناب .

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « عَلَى كلّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ » ، قيل : أرأيتَ إنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قال: « يَعْمَلُ بيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ » قال : قيل : أرأيتَ إن لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قال:« يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ» ، قال : قيل له : أرأيتَ إنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قال : « يَأمُرُ بالمعْرُوفِ أوِ الخَيْرِ » ، قال : أرَأيْتَ إنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ : « يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإنَّهَا صَدَقَةٌ»(١) .

يريد الرسول ﷺ أن يبين لنا أن كل عمل خير هو صدقة وبذلك يهدف الرسول إلى تصحيح مفهوم الناس عن الصدقة وأن له معنى أوسع وأشمل وأعمق من المعنى المتعارف عليه ومهد الرسول الكريم ﷺ لذلك بقوله : « عَلَى كلّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ » وهذه مقدمة تشمل كل المسلمين غنيهم وفقيرهم حيث إن " كل" أفادت العموم سواء أكان غنياً أم فقيراً ، فوقع الناس في الإشكال وقالوا : "إنْ لَمْ يَجِدْ" لأن هذا التعميم يثير تساؤلات ، لأن للصدقة مفهوماً مالياً ، وهذه التساؤلات تقابل بأجوبة تعبر عن رحمة الإسلام ، وتعدد جوانب الفضائل وإمكان فعلها من أى إنسان .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة باب على كل مسلم صدقة ١١٥/٢ ومسلم بلفظه ٨٣/٣ والحديث مروى بلفظ آخر في الجامع الصحيح ٤٤٦/١ فتح الباري ٣٩٢/٣ ، عمده القارئ ٢٤٨/٧ .

ولذلك نشأ هذا الحوار الجاري بين الطرفين فكل فكرة تـؤدي إلـى التي تليها بواسطة السؤال .

ونجد في قول الصحابة: " أرأيتَ إنْ لَمْ يَجِدْ " نجد في هـذا المقطـع حذفاً للفاعل والمفعول حذف الفاعل في قوله : "يجد" ليدل على شـمول أى فرد من أفراد الناس ، وحذف المفعول به والتقدير إن لم يجـد مـالاً يتصدق به والعبارة إنشائية طلبية جاءت عن طريق الاستفهام الذي كان غرضه طلب الرؤية والإخبار نتيجة نظرة فاحصة إلى الواقع المرئى .

والألفاظ المحذوفة في الحديث واضحة من مفهوم الحديث يقول ابن جنى : " إن المحذوف من اللفظ إذا دلّت الدلالة عليه كان بمنزلة الملفوظ به "[1] .

وفي الجانب المقابل نجد الإطناب الذي جاء على صورة التكرار في قوله : " أرأيتَ إنْ لَمْ ... " وذلك للتأكيد والتوثيق من الكلام .

والتنويع يعطى نغماً موسيقياً ، والترتيب يساعد على الحفظ وعمق الفهم وعبر بالمضارع في قوله " يجد" و" يستطع" و"يفعل" و" يمسك" و" يعين" ليدل على استمرار العمل الصالح في نصح الآخرين وإرشـادهم للتسهيل على المتطوع بطاقته في نشر تعاليم الدين ، وليصـور الحـدث ويستحضره في الخيال، وليفيد استمرار الفعل الذي يعنى تكرار الصدقة .

ولم يقل يستطيع في قوله : " يفعل " للمغايرة ولأن الأمر هين عملياً ويعتمد على الذات .

واختار صيغة الافتعال في قوله : " يعتمل بيديه " لتدل على زيـادة في المعنى ، فالمقصود طلب حركة قوية في العمل وهمـة عاليـة فـي البحث عن عمل واستحثاث الطاقة البشرية .

---

(١) الخصائص لابن جنى تحقيق : محمد علي النجار ٢٩٣/١ ــ المكتبة العلمية ــ بيروت ــ لبنان .

فالصيغة تصور العمل اليدوي المتنوع والجهد العضلي للإنفاق على الذات والعيال ثم التصدق ، وههنا عمل لأجل الصدقة وهذه المشاهد تتضمن حركات حسية مرئية تواكبها حركات ذهنية .

وذكر كلمة " بيديه" للتأكيد على العمل ومباشرة الإنسان له بنفسه .

" الاعتمال" افتعال يعنى يتكلف ويتجشم مشقة العمل باليدين ، وهذا خير الكسب ويستدعى في نفوسنا نبى الله داود ﷺ الذي كان يعمل بيديه وقد أتاه الله فضلاً يا جبال أوبى معه والطير ، وشد الله ملكه وأتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين ، وكان يعمل بيده ويأكل من كسبها يد المسلم ليست يداً عاطلة ولو كان عنده من يعوله دائماً عليه أن يغمسهما في حركة الحياة يأخذ ويعطى ويفيد ويستفيد "[1] .

وجاء التقديم في الحديث مراعاة لمقتضى الحال ولبيان أهمية المقدم فقدم "نفسه" في قوله : " فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ " فالنفس مقدمة على الآخرين ، وهذا يؤكد واقعية الدين الإسلامي والمقصود بالنفس ذاته وعياله ثم يأتي بعد ذلك التصدق على الآخرين .

وقدم العمل باليد على غيره من أنواع الأعمال الأخرى لبيان شرف العمل باليد ، حيث إن فيه نفعاً لنفسه ولغيره .

وفي قوله : « يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ »

نجد أن المضارع في قوله : " يعين " يدل على تكرار الحدوث وصورت العبارة مشهدا حسياً ترى فيه المسلم يسرع ملهوفاً لمعونة أخيه الملهوف .

والتعبير بقوله : " ذا الحاجة " يثير الشعور بالشفقة على هذا المحتاج ولفظة " الملهوف " تعمق الحالة النفسية عند المحتاج وقد اشتملت

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول د / محمد محمد أبو موسى ص٢٨٥ مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م .

العبارة على الإطار الحسي في قوله : " ذا الحاجة " والإطار النفسي في قوله " الملهوف " وهذا مما يصور فاعلية الحاجة وتفاقم المشكلة .

وفي قوله : « يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ »

الجزء الأول من العبارة جملة فعلية تدل على استمرارية الإمساك عن الشر ، والجزء الثاني اسمي يدل على ثبوت الصدقة ومعناها : أنه ما دام إنه أحجم عن إصدار الخير فلا يصدر شراً ليحافظ على صدقة فعلها .

وقد أعطانا الرسول الكريم ﷺ النصيحة السديدة في مجال الصدقة وكسب الثواب ، وليس معنى ذلك أن لا يفعل الإنسان الخصلة المتأخرة إلا بعد العجز عن السابقة لها بالفضل فمن أمكنه أن يفعل جميع ما ذكر في الحديث جميعاً في وقت واحد فليفعلها .

وقد أحاط الحديث بكل جوانب الشفقة من الله تعالى على خلقه ، فالصدقة إما بالمال أو بغيره ، والمال إما حاصل أو مكتسب وغير المال إما فعل وهو إغاثة محتاج أو إغاثة ملهوف وإما ترك وهو الإمساك عن الشر[1] .

ونلحظ التسلسل المعنوي في أفكار الحديث إذ يؤدي الكلام من الأكبر إلى الأصغر بواسطة الحوار الجاري بين الطرفين فكل فكرة تؤدي إلى التي تليها بواسطة السؤال .

وهذا من بديع جوامع كلمه وحكمته في دعوة الخلق .

فالنبي بكلمات محدودة يعبر عن قانون اجتماعي ديني هو قانون الأمن الاجتماعي ، وهذا يرتبط بالإنسان نفسه ، وتنظيم وتآلف المفردات يخضع إلى قدرة الفنان والأديب ، فلو فككنا هذه المفردات من تنظيمها

---

(١) فتح الباري ٣/٣٦٢ .

البلاغي وأعدنا صياغتها وتركيبها بتأليف آخر لاختل لدنيا هذا التوازن لأن نظمها وتأليفها يخضع إلى نفس ربانية سلسلت الأفكار ورتبتها ترتيباً منطقياً ، والنبي ﷺ له الحس البلاغي والعقل الواعي الكبير لصف الألفاظ صفاً منطقياً جميلاً متسلسلاً " فاللغة في البلاغة تحسين ، واللغة في العقل النقدي الحديث تكوين لأن ذهن الإنسان لا يشبه بأية حال آلة مصورة ، فالذهن هو الذي كون فكرة الرجل ، وإذاً فنحن نسمي الأشياء على التدقيق وإنما نفكر فيها وكلمة نفكر تعنى أننا نضيف ونحذف ، ونكون ونركب ، والإنسان بطبيعته مفكر ، أى أنه صاحب لغة تتعامل مع الأشياء "[1] .

ونجد أن من فصاحة الرسولﷺ تآلف الألفاظ النبوية مع لغة العصر الذي ولدت فيه ومع العصور التي تليه .

وقوله : "على كل مسلم صدقة" شاهد على ألفة ألفاظه مع عنصر الزمن وانصهارها فيه فلو دفعتها إلى أزمنة مضت قبله لوجدت لها موضعاً هناك ، ولو ترامیت بها إلى قيام الساعة لوجدتها حاضرة ومألوفة في ذهن الإنسان ، فهى مألوفه في زمنهﷺ ، وموضع اهتمام واحتفاء المتلقين لها ، وما زالت تلقى ظلالها في لغتنا المعاصرة وهى قادرة أن تمتد وتعبر أزمنتنا هذه إلى أزمنه لاحقة تدركها أجيال أخرى بهذه القوة والألفة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ قَالُوا : وَكَيْفَ ؟ قَالَ : كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا "[2].

---

(١) ينظر اللغة والتفسير والتواصل د/ مصطفى ناصف ص١٣٤ ــ طبعة الكويت ١٩٩٥م عالم المعرفة .

(٢) أخرجه النسائى في كتاب الزكاة باب جهد المقل ٥/٤٤ .

يبين الرسول ﷺ بهذا الأسلوب الموجز البليغ فضل الصدقة وإن قلّت، ويقرر أن من تصدق بدرهم وهو نصف أعظم من الغني الذي تصدق بمائة ألف وهي جزء من ماله وهي نظرية نسبية قررها الرسولﷺ في هذا الحوار الجميل فقد ذكر قوله : " سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ " : وهذه جملة غريبة تثير في نفس المتلقي سؤالاً ، وينشأ من ذلك حوار نبوي جميل عن طريقه يتضح لنا عدم الاغترار بكثرة الصدقة والحض على الصدقة لكل الناس ، وعلى الغنى أن ينافس الفقير الذي تصدق بنصف ماله ويسابقه .

وهذا أسلوب تربوي جيد في التعليم ، اعتمد فيه الرسول ﷺ على التشويق بذكره عبارة تبدو غريبة لأول وهلة وتثير التعجب والاستغراب في النفوس ، وهي سبق الدرهم لمائة ألف درهم ، وسرعان ما يأتي التعجب عن طريق السؤال " وكيف يا رسول الله "

فهذا أسلوب إنشائي جاء عن طريق الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازي وهي التعجب والاستغراب .

والواو هنا جاءت لغرض ومغزى مهم حيث إنها تدل أنهم صدقوا ، ولكن يطلبون الكيفية .

وفي قول الرسول الكريمﷺ : " كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ ..."

أسلوب إطناب جاء عن طريق التفصيل بعد الإجمال وذلك بعد التهيئة له والتشويق إليه بقوله : " سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ " .

وفي هذا التفصيل بعد الإجمال والتفسير بعد الإيهام بين لنا رسولنا البليغ ﷺ أن الخيرية تشمل الرجل الفقير والشخصية المثالية وهي الرجل الذي يقدم نصف ماله الذي لا يتجاوز درهمين ، وتشمل " الغني الذي ينهل من ماله الوفير مائة ألف درهم هي جزء يسير من المال ، لكن العلو هنا في جانب الفقير .

وأسلوب الحديث " كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا ... "

أسلوب قص وسرد جاء عن طريق الجملة الخبرية المصدرة بالفعل الماضي في قوله : " كان " وقوله : " تصدق " .

وهذا يدل على أن التصدق عند الفقير أمر اعتيادي ، وسهل على النفس ، يفعله بطيب خاطر بدون نوازع تمنعه أو ترده .

أما الجملة الخبرية في قوله : " انطلق ، فأخذ ، فتصدق ... "

فقد اختيرت فيها أفعال حركية ، وجاءت الفاء في قوله : "فأخذ ، فتصدق ..." الدالة على الحركة السريعة .

وختم الحديث بالجملة الفعلية : " فتصدق بها ... "

ليؤكد همة المتصدق ، واعتقاده بأنه يتكلف المشقة ويصنع الكثير .

ومع تضمن هذا الحديث نوعى الأسلوب الإيجاز والإطناب إلا أن الإيجاز في التعبير هو الأعم الأغلب ، حيث تكثفت المعانى الوفيرة في ألفاظ قليلة جامعة ، بين فيها الرسول ﷺ فضل الصدقة وإن قلت كما بين فيه أن الثواب على قدر الجهد ، وأن على الغنى ألا يغتر بإنفاقه الكثير ، بل عليه أن يسابق الفقراء وينافسهم في التصدق حسب النظرية النسبية التى بينها لنا رسولنا الكريم ﷺ .

وتنكير " درهم " يشير إلى الوحدة أي درهم واحد .

وكذلك تنكير " رجل " يفيد العموم أى رجل وليس رجلاً مقصوداً بعينه وعطف جملة " وانطلق رجل ... " على التي قبلها لاتحاد الجملتين في الخبرية ووجود المناسبة بين الجملتين ولم يوجد مانع من العطف .

والفصل في الجمل المبدوءة بالقول في هذا الحديث وغيره من الأحاديث النبوية لشبة كمال الاتصال فتفصل الجملة الثانية عن الأولى كما يفصل الجواب عن السؤال لما بينهما من الاتصال والربط المنافي للعطف المقتضى للحاجة إلى العاطف .

والبيان النبوي الشريف يزخر بهذا التقرير الناشئ عن الفصل والوصل ويتميز بكمال الدقة وتمام العصمة ، حتى لا تستطيع أن تبدل بين جملتين من أحد النوعين بالآخر إلا إذا أحلت المعنى عن وجهه ولو تبين لك أنك على الحق ، إذ دقائق الفروق أحياناً تخفى على الناقد ولو أعطانا الأناة من فكره لأعطته وجهها الناصع وقادته إلى أن ليس في الإمكان أبدع مما كان "[1] .

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ »[2].

جاء هذا الحديث الشريف عن طريق أسلوب الإيجاز الجميل فقد جمع معان كثير في ألفاظ قليلة فكان من جوامع كلمه ﷺ ثم أتبع هذا الإيجاز ببعض من التوضيح والتفصيل فقد جاء هذا الحديث على طريق أسلوب التشويق بإثارة الذهن في سرد كلمة تحتاج إلى شرح وإفهام .

فجملة « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » جملة مبهمة تحتاج إلى تفسير ، وقد فسرها هذا الحديث تفسيراً أخلاقياً ، فالذي يبنى عليه هذا الدين هو الأخلاق وعماد الأخلاق النصيحة التي ترفض الشر ، وتلزم صاحبها الخير ، وقد بين هذا المعنى رسولنا الكريم ﷺ بياناً عاماً شاملاً بدءاً من الله تعالى حتى عامة البشر .

فالنصيحة لله : الإيمان به والإخلاص له وتخليص القلب من شوائب الهوى واللجوء إلى الطاعة والعبادة وكل جوامع الخير حباً في الله وشوقاً له .

---

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ٥٣/١ ، وأبو داود في الأدب باب النصيحة ٢٨٦/٤ ، النسائى في كتاب البيعة النصيحة للإمام ١٤٠/٧ .

النصيحة لكتابة : قراءته بتدبر وخشوع وتعلمه وتعليمه ومعرفة تفسيره وتأويله والعلم بما جاء فيه والعمل به ، ففيه كل أحوال الدنيا والآخرة .

النصيحة لرسوله : باتباع أوامره واجتناب نواهيه والسير على هديه وحبه وحب من يحبه وبغض من يبغضه والدفاع عن سنته والتصدي في وجه من يريد إهانته وهو مثال للكمال الإنساني .

والنصيحة لأئمة المسلمين : وذلك بمحبتهم وموالاتهم وعدم الخروج عن طاعتهم ...

والنصيحة لعامة المسلمين ، بأن ننقى القلب من الحقد والحسد ونمنع عن المسلمين الأذى ونريد لهم الخير .

وبذلك تكون الأمة الإسلامية وحدة متماسكة ومجتمعاً فاضلاً .

وبدأ الرسول الكريم ﷺ حديث الشريف بقوله : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » وهى جملة اسمية تفيد القصر بتعريف الطرفين للتأكيد على أهمية النصيحة حتى قصر الرسول ﷺ الدين عليها .

وهو من قصر الموصوف على الصفة .

وعبر الرسول الكريم ﷺ بالجملة الإسمية في هذا المعنى لإفادة الثبوت والدوام ، والقصر من الأساليب البلاغية التي تسترعى انتباه السامع وتحمله على الإصغاء لما يلقى إليه من أحكام وقضايا فهو يقرر المعنى ، ويعمل على توكيده في ذهن السامع كما أنه يفيد الإيجاز .

وعبر بقوله " الدين " دون " الإسلام " وذلك لأن كلمة الدين أعم وأوسع من كلمة الإسلام ، فكلمة الدين تصور ثبوت هذه الأخلاقيات في أصل الإسلام بوصفه ديناً .

وهذا العموم أدى إلى تساؤل الصحابة " لمن " وعبر بالضمير " نا " وهو ضمير جمع إشارة إلى أن هذا السؤال من الصحابة كان جماعياً .

وأضاف الكتاب والرسول وعامة إلى الهاء لأن المقام مقام إضافة للغيبة ولتشريف المضاف والمضاف إليه .

وأضاف " الأئمة " إلى " المسلمين " لأنهم جماعة .

وبنى الرسول الكريم ﷺ الحديث الشريف على أسلوب الإيجاز بالحذف في قوله « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ ... »

والتقدير : " النصيحة لله ، والنصيحة لكتابه والنصيحة لرسوله ، والنصيحة لأئمة المسلمين والنصيحة لعامتهم ... "

وقد أفاد الحذف هنا الإيجاز والإيجاز بابٌ دقيقُ المسلك لطيفُ المأخذ عجيبُ الأمر شبيه بالسِّحر فإنَّك ترى به ترك الذِكْر أفصحَ من الذكر والصمت عن الإفادة أزيدَ للإفادة وتجدُك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطِق وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن "[1] .

ونجد أن الرسول الكريم ﷺ قدم النصيحة لله ثم أتبعها بالنصيحة لكتابه ، ثم النصيحة للرسول ، ثم أئمة المسلمين ثم عامتهم وذلك لبيان أهمية المقدم وتشريفه وتعظيمه .

والمتأمل لهذا الحديث يجد أن معناه أكثر من ألفاظه فإذا بني بناءاً آخر نجده في أضعاف هذه الألفاظ .

كما نلحظ دقة الرسول ﷺ في انتقاء ألفاظه باختيار لفظ " النصيحة " دون غيره من الألفاظ وذلك لأن الناصح لغة الخائط يؤلف أجزاء الثوب حتى يصير قميصاً أو غيره فينتفع به وهذا تمهيد للمتلقي أن الناصح في دين الله هو الذي يؤلف بين عباد الله وبين ما فيه سعادتهم "[2] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص١١٢ تحقيق محمد رشيد رضا ص١١٢ ــ دار المعرفة ، الخصائص لابن جنى ٣٦/٢ تحقيق على محمد النجار ــ دار الهدى ــ جوهر الكنز ٢٦٨ تحقيق محمد زغلول سلام .ط : دار الكتاب العربي ١٩٦٩م .

(٢) فيض القدير للمناوي ٥٥٦/٣ .

وشمل الرسول ﷺ في تعداد جوانب النصيحة جميع أنواع التصرف الإنساني في الأقوال والأفعال والنيات والمعلامات والسلوكيات الاجتماعية " كل أنواع العبادات والطاعات فالحديث من جوامع كلم الرسول ﷺ الذي عمد فيه إلى الإيجاز في التعبير مع عدم الإخلال في المعنى.

فما أحوجنا اليوم إلى مثل هذا التخطيط التربوي حتى يزول ما علق بالمجتمع الإسلامي من مفاسد ويحد ما فيه من عادات سيئة ، حتى تتم النصيحة التي أرادها النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » وعبر رسولنا الكريم عما أراده من معان بأسلوب جيد عميق الفكر ، سهل الألفاظ ، خال من التعقيد والتنافر في عبارات سلسلة وتراكيب واضحة ، حتى يسهل علينا الأمر وليبين شدة التواصل بين المربى المبدع عليه الصلاة والسلام وبين المتلقين في كل زمان ومكان .

" وفي الحديث استخدام أسلوب تقديم الفكرة المستغربة البعيدة عن أذهان المخاطبين مع أنها لدى التحليل حق لا ريب فيه لاستدعاء تساؤلات المخاطبين ، ولذلك سألوا وأجابهم الرسول ﷺ .

وفي هذا الأسلوب من تمكين مضمون البيان في عقول المخاطبين ونفوسهم ما لا يوجد نظيره فيما لو جاء شرح المضمون منذ البداية"[1] .

ومن ذلك ما روى عَنْ أَبي هريرةَ ﷺ : أَنَّ رَسُول الله ﷺ ، قَالَ : « كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أبَى » قيلَ : وَمَنْ يَأبَى يَا رَسُول الله ؟ قَالَ : « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أبَى »[2] .

---

(١) روائع من أقوال الرسول ﷺ دراسات أدبية ولغوية وفكرية تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ٥٢٣ ــ دار القلم ــ دمشق الطبعة العاشرة ١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م .

(٢) رواه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ٦٧/٩ ، رياض الصالحين باب في الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها ص ٩٠ .

فقد ذكر الرسول الكريم ﷺ أن كل أمة محمد يدخلون الجنة ، واستثنى من ذلك من أبى أى امتنع ورفض ، وهل يعقل عاقل أن هناك من يمتنع عن دخول الجنة ، فطبيعى أن يثير هذا الاستثناء في نفس المتلقي سؤالاً ويأتي بعد ذلك الجواب الشافى من أفصح الخلق لغة وأعذبهم منطقاً ، ويصاغ الحديث على هذا الحوار الموجز المركز الجميل.

ونلحظ في الحديث انسجام الضمائر " أطاعني ، عصاني . أمتي" وأل في " الجنة " للعهد أى الجنة المعهود المعروفة التي سبق الحديث عنها في آيات كثيرة من القرآن الكريم وفي أحاديث كثيرة من أحاديثه الشريفة ولفظ " كل " يفيد العموم والشمول ويندرج تحته الكثير من المعاني التى لو شرحت لاحتاجت إلى صفحات .

وامتازت ألفاظ الحديث بالوجازة والوضوح ، فأي تعبير بشرى يستطيع أن يعبر بما عبر به أفصح من نطق بالضاد .

إن تحت هذه الألفاظ من المعاني ما لا تؤديه عبارة لمتكلم آخر إلا في لفظ كثير يتطلب الصياغة في سطور كثيرة إن لم تكن صفحات .

وبنى الحديث الشريف على محسن من المحسنات البديعية المعنوية وهو المقابلة التي امتازت بالتلاؤم والتناسق الذي انبعث من اختيار الرسول ﷺ للألفاظ التي أدى بها النصيحة فخالجت النفوس وتعلقت بها القلوب ، فمن ذا الذي لا يحب أن يدخل الجنة ومن ذا الذي يحب لنفسه إن يدخل النار ؟ إلا جاهل أحمق ، وقد اختار أفصح الخلق نطقاً وأعذبهم منطقا كلمة " أبى " التى تدل على الإباء والنفور والامتناع .

فانظر إلى بلاغته ﷺ ووضوح ألفاظه ونصاعة معانيه هل ترى في هذا الحديث لفظاً منفراً أو غريباً ؟ كل ذلك لم يكن .

ونلحظ أن أحاديث الحوار النبوي لابد من اشتمالها على الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى وهو : " الإنكار "

ففي الحديث السابق نجد أن قوله : " قيلَ : وَمَنْ يَابَى يَا رَسُول الله " وذلك لأن كلام الرسول ﷺ أثار الدهشة في نفوس السامعين فنشأ عن ذلك هذا الاستفهام الإنكاري .

٢ـ ومن هذه الطرق أن يوجه ﷺ إلى الصحابة سؤالاً ، ويستمع إلى أجوبتهم ، ثم يناقشهم في هذه الأجوبة ويبين لهم الصواب [١] .

وقد يعتذرون عن الإجابة ويقولون : الله ورسوله أعلم فيدلى بالجواب من ذلك حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قَالَ « فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ ». قَالَ قُلْنَا الَّذِى لاَ يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ ، قَالَ « لَيْسَ بِذَلِكَ وَلَكِنَّهُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ »[٢] .

فهذا معنى جديد جاء به الرسول الكريم ﷺ في هذا الأسلوب الحواري وهذا المعنى يفتح معنى جديداً للشدة ، فالشديد عند العرب هو ما تعورف عليه من القوة في الجسد والبدن كلاعبي الملاكمة والمصارعة .

ولكن الشديد في المفهوم الإسلامي غير ذلك فقد رفع الرسول الشدة إلى معنى العلية على هوى النفس والسيطرة عليها ، وعلى انفعالاتها ، فلا تورد الإنسان عواطفه في المهالك إذا ترك إرادته جانباً ، ومن يتأمل التاريخ يجد التهور وعدم ضبط النفس مصدراً لكثير من المهالك .

وهذا أسلوب من الأساليب التربوية المؤثرة التي لا تصادف في المخاطبين أي اعتراض أو أي صدمة نفسية حادة .

---

(١) وهذا ما نفعله في محاضراتنا اليومية مع طالباتنا وهذا احتذاء بنبينا ﷺ ، فهى طريقة نبوية تربوية وليست طريقة أجنبية حديثه كما زعم الزاعمون ، فإنما هى بضاعتنا ردت إلينا ، فهم دائما يأخذون أفكارنا ويسبقوننا إلى تطبيقها وتفعيلها وثبات نجاحها ثم بعد ذلك يصدرونها لنا على أنها من مبتكراتهم التى سبقونا إليها ، وقد عقد الإمام البخاري بابا عنوانه " طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم " انظر البخاري ٢٢/١ .

(٢) الإمام مسلم في صحيحه ٣٠/٨ في البر والصلة باب فضل من يملك نفسه عند الغضب .

وهو أسلوب سؤال عن فكرة يعرفها المخاطبون في معاملتهم وهو معنى كلمة " الصرعة " ولكنه فسر لهم " الصرعة " بمعنى آخر غير ما تعاهدوه وما يعرفونه ، وبين لهم أن ضبط النفس ومصارعة هوى النفس والتغلب عليها والسيطرة على الانفعالات النفسية أحق بأن يطلق عليه لفظ " الصرعة "

فانظر إلى بلاغة الرسول ﷺ وفصاحته في خلق هذا الأسلوب الحواري الرائع ، فلو ألقى ﷺ على الصحابة تعريف الصرعة دون إثارة هذا الحوار لكان من الممكن أن يمر على آذان السامعين مروراً مؤقتاً سرعان ما ينسون مضمونه ، ولكن تبين لهم بعد هذا الحوار أن الصرعة، غير ما كانوا يعهدون ويعتقدون .

وهو معنى مغاير تماماً كما بين الرسول الكريم ﷺ معنى الصرعة للصحابة في حديثه السابق . ومن أجل ذلك لا ينسونه أبداً .

فقد بين لهم الرسول ﷺ بهذا الأسلوب المفهوم الخلقي الذي أراد تعليمهم إياه ، وهو أن بطل المصارعة حقاً هو الذي يملك نفسه عند الغضب ، وذلك لأنه يستطيع أن يغلب أقوى المصارعين له ، نفسه التي بين جنبيه .

وهذا الحديث يفتح معنى جديداً للشدة ، فقد كان الشديد عند العرب كالشديد في عرفنا اليوم هو من تملك جسداً رياضيا قوياً كالملاكمين والمصارعين الدوليين مثلاً ، فدفع الشدة إلى معنى الغلبة على هوى النفس والسيطرة عليها وعلى انفعالاتها ، فلا تورد الإنسان عواطفه في المهالك إذا ترك إرادتها جانباً ، ومن يفتح سجلات التاريخ يجد الغضب وانحلال الإرادة مصدر الكثير من الكوارث .

وهذه حوادث الناس اليوم بعد هجز مثل هذه القيم وكثير مصب لها ، أروقة القضاء تتلقى سيلاً منها لا ينتهي متمثلاً في جرائمهم من كل نوع ولون "[1] .

إن هذا الإلهام النبوي لتقصر دونه بلاغته البلغاء " لما اشتمل عليه من الكلمات القصيرة والمعاني الكثيرة ، والنكت اللطيفة مع نهاية البلاغة ووقوعه في الفصاحة أحسن موقع "[2] .

وبدأ الرسول الكريم ﷺ حديثه الشريف بأسلوب من الأساليب الإنسانية وهو الاستفهام مما أثرى المعنى ، وحسن اللفظ ، وجذب الانتباه نحو كلامه ﷺ لتلقى ما بعده من كلام بوعى وانتباه ولصدر الحديث في البيان النبوي صفة غالبة من صفات الإثارة والتشويق .

وفي قوله:« لَيْسَ بِذَلِكَ وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ».

أسلوب من الأساليب البلاغية الجميلة وهو أسلوب القصر وهو من القصر الإضافي قصر " القلب " فقد قلب الرسول الكريم ﷺ اعتقاد السامعين وهم الصحابة ﷺ بأن المقصود بالشدة القوة في البدن وأراد به القوة في العقل والحلم والصبر .

وجاء الرسول ﷺ بالمعنى الذي أراد التعبير عنه بأسلوب القصر ليعمل على توكيده في ذهن السامع .

كما أنه أفاد الإيجاز الذي لا غنى عنه للأديب في بعض المواضع التي تتطلب ذلك وتقتضيه .

وفصلت جملة "قلنا" : لشبه كمال الاتصال حيث إنها واقعة جواب لسؤال اقتضته الجمة الأولى .

كذلك فصلت جملة قال « لَيْسَ بِذَلِكَ » لمثل ذلك الغرض .

---

(١) أدب الحديث النبوي د/ بكرى شيخ أمين ص٩٠ .

(٢) الطراز للعلوى ١٦٣/١ تصحيح سيد بن على المرصفى مطبعة المقتطف بمصر .

وعطف جملة « وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ »

لأن معناه مغاير لمعنى ما قبلها والعطف يقتضى المغايرة .

وهذا الحديث كناية عن وجوب الحلم والأناة وضبط النفس والرسول الكريم ﷺ بهذه الكناية الجميلة يربى فينا الإنسانية الكاملة ويدعونا إلى مكارم الأخلاق ليس بأسلوب أمر أو نهى أو غير ذلك بل بأسلوب حواري جميل يرغب في الشئ ويحببه إلى النفس .

فما أجملها من نصيحة وما أكرمها من قولة ، وحقا إنها للغة سامية هادفة ونصيحة ثمينة غالية يقدمها لنا الرسول الكريم ﷺ في جملتين منفصلتين إحداهما إنشائية والأخرى خبرية وبأسلوب موجز جميل .

ومن ذلك ما روى عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ حَدِّثُونِي مَا هِيَ قَالَ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : هِيَ النَّخْلَةُ»[1].

فلتتأمل الحديث في أسلوبه السهل الممتنع الذي لا تعقيد فيه ولا غرابة في كلماته ، ولم تطغ زينة العرض فيه على أهمية الموضوع .

وقد بدأ الرسول الكريم ﷺ حديثه الشريف بأسلوب خبري ، وكثيراً ما يرد هذا التعبير من غير أن يقصد به الإخبار ، وإنما يراد به التوجيه إلى عمل أو أدب أو سلوك أو تعليم الصحابة ﷺ لأمر من الأمور .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم ١/٢٢ .

وكثر استخدام الرسول ﷺ لهذا الأسلوب لأن رسالته تبليغ الحق والخير والإرشاد إلى الصالح من القول والعمل .

وفي الحديث استخدام الخبر والإنشاء متجاورين تجاوراً هو في قمة البلاغة ، الأسلوب الخبري تمثل في قوله : « إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا » إلى هنا ينتهي الجزء الإخباري .

ثم يتواصل التعبير في الحديث نفسه بأسلوب إنشائي جاء على صيغتي الأمر في قوله " حَدِّثُونِي " والاستفهام في قوله : " مَا هِيَ " ؟

فهنا نرى النبي ﷺ قد بسط في القسم الإخباري من هذا الحديث بيان تلك الشجرة التي لا يسقط ورقها والتي شبه بها المسلم في قوة إيمانية .

واحتمل حديثه هذا وغيره مضامين كثيرة يطول الحديث في شرحها وحجم التعبير عند رسول الله ﷺ لا يخرج عن مقتضى المضمون ، وذلك هو عمل النبي الذي لا يعرف اللغو ولا الفضول ولا يقصد بالتعبير اللغوى هدفاً غير السداد والوضوح في تعبير قوى صحيح كما في أسلوب هذا الحديث .

ويتجلى سمو الخلق النبوي في إيراد الأسلوب الإخباري التعميمي كمبرر للدخول في الأسلوب التقريري الطلبي، وهذه رفعة في كل أحاديثه ﷺ تمنح كل حديث خصائص الألفاظ المتميزة على غيرها في أى كلام بشري .

فنلحظ أن ألفاظ الحديث سهلة قوية ممتعة خالية من التعقيد بريئة من المبالغة متوازنة تؤدي المعنى بكل حرف فيها ، ولا تزيد على ذلك .

ألا ترى أن قوله ﷺ : " إن " تأكيد للأسلوب الخبري ، والإتيان بـ " من " بعد ذلك فيه دقة وروعة فهي تبعيضية ولفظ " الشجرة " هنا يحمل أكثر مما يحتمله اللفظ ، وشفع ذلك بتشبيه تلك الشجرة بالمؤمن ، وهذا أغنى عن كل ما يطول شرحه ، وتعداده في معرض إبراز المعنى

وتقريره وتأكيده ، فقد ساق كلامه الشريف ﷺ متضمناً الخبر والإنشاء وكل الوسائل المعينة على أداء المعنى على أكمل وجه .

والمقصود من هذا الحديث بيان وصف المسلم ، ووضعه بين العالم، فالمسلم بحكم إيمانه وأهدافه في الحياة يتحول إلى إشعاع نوراني يضئ للناس سبل الخير ، ويكون هو نفسه مصدر خير عام في كل أحواله وشؤونه .

وأبرز هذا الحديث هذا المعنى في تشبيه رائع استهله بهذا السؤال : « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ » « وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِى مَا هِىَ » فأثار انتباه السامع وأخذ بمجامع مداركه ، ثم ألقى إليه الجواب ، وفي هذا الجواب أبرز أن المسلم نخلة للعالم تمده بمادة الحياة والسعادة بما فيها من غذاء وفوائد كثيرة جداً .

وبني الحديث على أسلوب حواري ركز فيه على معرفة النخلة بعد أن طرح السؤال بما يناسب الطابع التعليمي بأسلوب لطيف جذاب فبعد أن تشغل الأذهان بالبحث والتفكير تتم المعرفة بالجواب الصريح ، ومن ثم ترسخ في الأذهان تلك الصورة اللونية الرائعة وهى صورة خضراء تملأ النص نضارة وإشراقاً ، واللون الأخضر من الألوان المحبوبة إلى النفس وخاصة إذا حفل بالنفع الرباني الذي يواكب استمرار الحياة ، فالمؤمن خير جميل نافع ، كما أوحت النخلة بهذه القيم الرفيعة الضرورية ، فالمؤمن في الحياة ضرورة وكمال ، وهذا ما سجله التاريخ للمسلمين ، فهم أهدوا - ولا يزالون - الخير والهداية لكل العالم ، ولم يعرف التاريخ هدوءً أو سلاماً كما شهده في ظل سيادة مثل الإسلام .

وقوله : « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً » جملة خبرية اسمية مؤكدة وقوله: « لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا » جملة فعلية ، وغاير بين الأسلوبين لتنشيط الذهن بهذه المغايرة .

وقوله : « وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ » جملة اسمية مؤكدة وعدل من الجملة الخبرية إلى الإنشائية الاستفهامية في قوله:«فَحَدِّثُونِى مَا هِىَ ؟» للتنشيط أيضاً .

وهذا الأسلوب الحواري فيه عبرة للمربين والمعلمين بترويض الأذهان ، وهو منهج تربوي نبوي فيه تنويع الأسلوب من سرد إلى حوار إلى استفسار لإثارة ذهن السامع وانتباهه فكان بذلك المثل الأعلى للمعلم وسائل التربية والتعليم عن طريق ترويض الأذهان .

والمثل له معنى لغوى بمعنى " النظير "[1] ومعنى عرفي وهو القول السائر ومعنى مجازي وهو الحال الغريبة .

والمثل هنا مجاز استعاره الرسولﷺ للحال أو الصفة أو القصة والمشبه : المسلم ، والمشبه به : النخلة ، ووجه الشبه : كثرة الخير ، ودوام الظل وطيب الثمر ، ووجوده على الدوام ، فإنه من حين طلوع الثمر لا يزال يؤكل منه حتى ييبس ويتخذ منه منافع كثيرة ومن سعفها وورقها وأغصانها يصنع الخشب والورق والحطب والحبال والحصير والمخاصر وغير ذلك ، حتى إن نواها يكون علفاً للحيوانات ، كما أن النخلة لها منظر رائع يمتاز بالجمال وحسن الهيئة وخاصة في فترة الإثمار ، فالنخلة كلها خير ومنافع وجمال .

كذلك المؤمن حيث كثرة طاعته ومكارم أخلاقه ، وحرصه على عبادته من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وسائر الطاعات .

ونلاحظ بلاغة الرسول ﷺ وفصاحته في الأسلوب الحواري السابق فقد راعى عدة أمور جعلت كلامه ﷺ من أجمل الكلام وأبلغه منها :

١ــ تحديد الغرض من السؤال .

---

(١) الكشاف ١/٥٥ .

٢ــ تحديد إلى من يوجه السؤال .

٣ــ تحديد الصياغة المناسبة للسؤال .

٤ــ مناسبة طريقة إلقاء السؤال ، يحث تبرز طريقة الكلام ونبرة الصوت والغرض من السؤال .

٥ــ الاستماع الجيد إلى الإجابة واستيعاب ما فيها من أفكار وتقويمها والحكم عليها .

٦ــ تحديد مدى الحاجة إلى طرح مزيد من الأسئلة للحصول على إيضاحات وتفاصيل .

٧ــ عدم المقاطعة أو قطع تيار الحديث .

كذلك نجد أن الأساليب الاستفهامية في الأسلوب الحواري السابق اختلفت فيها أدوات الاستفهام التي حددت نوع الإجابة المطلوبة .

كما اختلفت بإختلاف الغرض منها إلى بلاغية وحقيقية ، والأسئلة المجازية تستهدف إثارة أفكار ومشاعر معينة في ذهن المتلقي كالحث والاستنكار والنفى .

ويعد تضمين المقدمة سؤالاً بلاغياً وعرضاً مسبقاً للأفكار الرئيسية للموضوع من أكثر الفنيات التي تفيد في تهيئة ذهن المتلقي للموضوع ، وتقلل من احتمالات الإطالة غير المرغوبة في المقدمة ، والتي من الممكن أن يقع فيها قليلو الخبرة بمواقف الحوار كذلك امتازت حوارت الرسولﷺ بحسن الانتهاء وهو الجزء الذي أنهى به الرسول كلامه هادفاً إلى تركيز تفكير ومشاعر المستمع فيما قيل في لب الحديث ولتهيئة المستمع للوصول إلى نهاية الحديث .

وروى عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :« أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ». قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ فَقَالَ :« إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِى يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِى قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ

هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

لقد سألهم الرسول ﷺ عن المفلس ما هو ؟ فأجابوا بما هو جار في عرفهم وبلغة علمهم : « الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ » ثم تشوقوا إلى ما يخبر به عن حقيقة المفلس .

فجاء بعد هذا التشويق : « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا ... فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ .... »

فالمفلس الحقيقي هو المفلس من الحسنات يوم القيامة الذي عمل أعمالاً صالحة فضاع ثوابها وضاعت حسناته بسبب ظلمه واعتدائه والرسول ﷺ بذلك يربى فينا الإنسانية الكاملة بهذا الأسلوب الحواري التربوى الجميل ، فهو يقصد بذلك تعليم صحابته ﷺ خاصة وأمته عامة ويحذرهم من الظلم والعدوان حتى لا يكون حالهم مثل حال ذلك المفلس الذي ذكره وهذا الأسلوب الحواري الذي جاء عن طريق التشويق بالاستفهام أشد وأوقع في النفس ، فالنفوس التي اشتاقت إلى معرفة حقيقة المفلس تنزجر عن صفاته وتقلع عن خصاله التي ترسخت في وجدانها ، لأنها جاءت وهى مهيأة للتلقي منطلقة للمعرفة[2] .

فالمفلس هو المحروم من الإيمان ، وهو الذي يؤذى الناس ، فيخسر أصحابه ورفاقه، ويبخل عليهم ولا يكف شره عن غيرهم .

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآدب باب تحريم الظلم ١٨/٨ والترمذي في كتاب صفة القيامة باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص واللفظ المسلم وانظر في رياض الصالحين باب تحريم الظلم والأمر بردّ المظالم ص١١٩

(٢) التشويق في الحديث النبوي ص١٨ .

ويأتي يوم القيامة وقد كثرت ديونه فصودرت حسناته وألقيت عليه سيئات دائنيه فقذف به إلى النار .

أما الغنى فقد رسمه الحديث أيضاً بشكل مغاير ومعنى جديد أحدثه الرسول ﷺ وهو مقابل للمفلس ، والناس عند الله لا يوزنون بالذهب والفضة ، وإنما يوزنون بالأعمال الصالحة وأساسها تقوى الله وغنى النفس بأنها بالله والتزام حدوده ، إن المال عرض يزول والعمل الصالح للنفس المؤمنة خير وأبقى .

في هذا الحديث الحواري النبوي يلفت الرسول الكريم ﷺ أنظار الصحابة رضوان الله عليهم إلى أمر عظيم وإلى ناحية دقيقة قل من يفطن إليها تلك هو تصور مفهوم الإفلاس على حقيقته ، فالناس يفهمون أن المفلس على حقيقته من لا يملك من المال شيئاً أو من فقد ثروته وماله ، فهم يحسبون الإفلاس في المادة ويجعلونه قاصراً على الدرهم والمتاع والرسول ﷺ ينظر إلى الإفلاس من زواية أوسع لأنه يهتم بالحقيقة والواقع فهو يخاطب أصحابه بأسلوب فيه إثارة إلى البحث والتفكير ، وفيه تنبيه لهم بأن يغوصوا إلى أعماق الموضوع لتظهر لهم الحقيقة ناصعة جلية فليس الإفلاس في المال والمتاع بالأمر الخطير والشئ المخيف ، ولكن الإفلاس الحقيقي هو أن تضيع أمور الدين وتتلاشى الأعمال الصالحة ، ويصبح المجتمع مفلساً من ناحية دينه وأخلاقياته ، وكم من أناس ملكوا الدنيا وكدسوا الثروات الضخمة وعاشوا في الحياة مترفين ولكنهم كانوا تعساء لأنهم أفلسوا حقاً ، فقد ذهبت حسناتهم وتلاشت خيراتهم ، وذهبت إلى أولئك المظلومين الذين اعتدى عليهم ...

أليس هذا مما يدعوا إلى الحسرة والإشفاق أن يجمع الإنسان الحسنات ثم يأتي يوم القيامة لخصومه ولم يبق له منها إلا سيئات

خصومه الذين ظلمهم وبغى عليهم فتطرح عليهم ثم يلقى في السعير والعياذ بالله "[1] .

هذا الأسلوب من الأساليب التربوية المؤثرة التي لا تصادف في المخاطبين أية عقبة نفسية حادة .

وهو أسلوب سؤال عن فكرة يعرفها المخاطبون في معاملاتهم وهى معنى كلمة " المفلس " وسماع ما يعرفون عنها ، ثم الانتقال بهم إلى أمر دينى مشابه ، وبيان أن هذا الأمر الديني أحق بأن يطلق عليه لفظ " المفلس "

استخدام الرسول ﷺ في الحديث اسم الإشارة " هذا " في قوله: "وياتى يوم القيامة وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ....

وقد ذكر اسم الإشارة " هذا " وكرره سبع مرات .

ويظهر أن الغرض الدلالة على أن أصحاب المظلمات يكونون محيطين به يوم الحساب ، مطالبين بحقوقهم ، فمن البلاغة المطابقة لمقتضى الحال الإشارة إليهم بإشارة القريب .

وعلى الرغم من تكرار اسم الإشارة فإنه لم يؤثر في تناسق الألفاظ وطريقة نظمها ، بل جاء بخاصية فنية جميلة ، تكمن في رتابة الجرس من خلال الإيقاع الصوتي لتكرار لفظة " هذا " دون سأم أو ملل لأن المغايرة في اسم الإشارة واضح في كل واحدة منها ، وظاهر أن المضروب غير المشتوم ، وأن هذين غير من أكل ماله بالباطل "[2] .

---

(١) الأدب النبوي في ضوء العلم الحديث دراسة في علم السلوك الإسلامي د/ صابر طعيمة ١٥٣ ، ١٥٤ دار الجيل ــ بيروت ١٤٠٧هـ ــ ١٩٩٧م .

(٢) الخصائص الفنية في الأدب النبوي د/ محمد بن محمد الدابل ص١٢٥ ــ مكتبة العبيكان الطبعة الثانية ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م .

وأكد الخبر بحرف التأكيد " إن " في قولـــه : " إن المفلس من أمتى " بالجملة الاسمية لأن مضمون الخبر فيه تحويل المخاطبين مـــن مفهـــوم يعرفونه إلى مفهوم ديني يجهلونه ، وقد يقع منهم موقع الاستغراب .

ونرى مطابقة كلام رسول الله ﷺ لمقتضى الحال كما ترى وضـــوح القصد وعدم المبالغة والإيجاز والخلوص والقصد والاستيفاء وقد برئـــت من كل عيب لصدورها عمن اجتمع له من قوة الطبـــع وصـــفاء الحـــس ومحض السليقة وثقوب الذهن ، وتمكن اللسان ، ومؤازرة الوحي .

في هذا الحديث النبوي تصوير بياني رائع جاء عن طريق الاستعارة التصريحية الأصلية حيث شبه المؤذى بالمفلس وحذف المشبه واستعارة لفظ " المفلس " للمؤذى للدلالة على الاستعارة التصريحية الأصلية .

والغرض البلاغي هنا تقريب المعنى وتصويره في الأذهان حيث إن الاستعارة عرضت المعنى المجرد في صورة حسية ملموسة تنفيراً مـــن الاعتداء بكافة ألوانه ، ودرجاته ، وحوادثه .

فانظر إلى الأسلوب النبوي الرائع في عرض معنى المفلس وبيانـــه للناس في أسلوب حواري جميل بإثارة سؤال يجيب عليه الصحابة ﷺ من معلوماتهم التي يعرفونها ، ثم يبين لهم الرسول ﷺ معنى آخر غير مـــا عرفوا .

فللإفلاس معنى شائع ، وهو ما أجاب به الصحابة ﷺ، وما يتعارف الناس في كل مكان ، ولكن الرسول ﷺ جاء للمؤمنين بمعنى آخر أعلى ، هو الإفلاس من القيم العليا ، من الخلق والدين ، فـــالمفلس .. يخســـر نفسه ولو ملأت أمواله خزائن الأرض وفي هذا المعنى يقول المولى ﷻ

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾[1] .

فمن ينسى دنياه وينسى آخرته في العالم الأسمى يكون مفلساً ومن يسعى إليهما جميعاً في حدود ما أمر الله ونهى عنه فإن ذلك هو الأمثل وبذلك يكون الرسول ﷺ فتح باباً جديداً للإفلاس غير ما تعارفه الصحابة ﷺ .

وفي لفظ : "طرحت عليه وطرح في النار" .

نجد أن لفظ الطرح مستعمل في غير معناه الحقيقي .

فهو مستعار وفي قوله "طرحت عليه" العرض والإلقاء وفي قوله : " طرح في النار" للإلقاء أيضاً أي ألقى في النار والاستعارة في الجملتين استعارة تصريحية تبعية وفي هذه الاستعارة تجسيد لغوي في صورة حسية ملموسة تقريباً لها في الأذهان .

وبين " حسنات " و " خطايا " محسن من المحسنات البديعية المعنوية وهو الطباق الذي لم يأت لمجرد الحلية والزينة اللفظية وإنما كان له دور بناء في بلاغة السياق والكلام النبوي .

---

(١) سورة الزمر من الآية : ١٥ .

٣ـ ومن هذه الطرق أن يورد الرسول ﷺ السؤال بشكل مشوق يرغبهم في أن يعرفوا الجواب :

وذلك كأن يذكر لهم أمراً عظيماً ومقصداً هاماً ، وهدفاً مرجواً يسعى إليه كل مسلم ، ثم بعد ذلك يورد السؤال : ألا أدلكم عليه ؟ ومن الطبيعي أن يكون الجواب من الصحابة " بلى " من ذلك قوله : ﷺ « أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ - ثَلاثًا - قُلْنَا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ ، وَقَالَ : أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ »[1] .

و " ألا " أداة تنبيه يؤتى بها لتنبيه المخاطب من غفلته وإيقاظاً لمشاعره ليهئ حواسه لتصغي إلى ما يلقى إليها من معان مهمة فتثبت تلك المعاني في الذهن وتستقر في النفس ويقوى الداعي إلى الحرص على الامتثال والاستجابة .

فهي " حرف استفتاح وأتى بها ليتنبه المخاطب من غفلته ليتوجه لسماع ما يلقى إليه فيقرّ في قلبه ولذا إنما يؤتى بها فيما يهتم بأمره"[2].

فقد بدأ ﷺ هذا الحديث بأداة التنبيه " ألا " لينبه إلى عظيم ، الأمر الذي سيخبر به فهو أمر مكروه تأباه النفوس المؤمنة والقلوب التي تخشى الله سبحانه وتعالى ، أكبر الكبائر إنه شئ مرعب مخيف ... مفزع مؤلم وينبغي التنبيه إليه ليقر في بالوجدان .

---

(١) متفق عليه من رواية أبي بكرة نفيع بن الحارث رواه البخاري في صحيحه ٣/١٥٠ ، ورواه مسلم في صحيحه ١/٦٤،وانظره في رياض الصالحين باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم ص١٦١ .

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان ٢/١٨٠ ط : دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ وانظر التشويق في الحديث النبوي طرق وأغراضه د/ بسيوني عبد الفتاح فيود ص٦٥ مطبعة الحسين الإسلامية الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .

وفي تكرار الرسول ﷺ السؤال ثلاثاً دلالة على أهمية الشئ وللدلالة على أنه أمر خطير جلل ، فيقول الصحابة ﷺ بتوجس وخيفة بلى يا رسول الله ، وعندئذ يأتيهم الجواب .

فقد هيأ المصطفى ﷺ النفوس لتلقى الكلام بهذا الأسلوب الإنشائي الطلبي الذي جاء عن طريق الاستفهام الذي أفاد التشويق وذلك لقصد إفادة رسوخ هذه المعاني في النفوس التي هيئت لتلقيها وشوقت لمعرفتها ، فهذا أمر مكروه تأباه النفوس المؤمنة وتشمئز منه القلوب .

ونلاحظ شدة المبالغة في التحذير من قول الزور وشهادة الزور وترجع تلك الشدة إلى جلوسه ﷺ قبل أن يخبر بهما ، وقد كان متكئاً ، إنه لم يجلس عند الإخبار بالشرك وعقوق الوالدين ، ثم جلس عند الإخبار بقول الزور وشهادة الزور مما ينبئ بخطرهما ، ويدل على شدة العقاب الذي أعد لقائل الزور وشاهده .

" كما ترجع المبالغة في التحذير من قول الزور وشهادة الزور إلى تكرار النبي ﷺ للإخبار بهما ، لقد ظل يكرر هذه العبارة " **ألا وقول الزور وشهادة الزور** " حتى قال الصحابة ﷺ " ليته سكت " تنموا سكوته إشفاقاً عليه من كثرة التكرار وشدة الانفعال.

وترجع أيضاً إلى تصدير الإخبار عنهما بأداة التنبيه " ألا " دون الخبرين السابقين " **إلا شراك بالله وعقوق الوالدين** " فهى حرف استفتاح يؤتى به لتنبيه المخاطب من غفلته حتى يتجه لسماع ما يلقى فيقر في قلبه ، ولذا لا يؤتى بها إلا في الأمور المهمة "[1] .

" ولا تعنى المبالغة في التحذير من قول الزور وشهادة الزور التهوين من شأن الإشراك بالله وعقوق الوالدين لأن تلك المبالغة قد

---

(١) دليل الفالحين ٢/١٨٠ .

اقتضتها غفلة الناس عن خطر قول الزور وشهادة الزور " ، ويفيد ذلك تأكيد تحريم قول الزور وعظم قبحه ، وسبب الاهتمام بذلك كون قول الزور وشهادته أسهل وقوعاً على الناس والتهاون بهما أكثر ، فإن الإشراك ينبو عنه قلب المسلم ، والعقوق يصرف عنه الطبع ، وأما الزور فالحوامل عليه كثيرة كالعداوة والحسد وغيرهما فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه ، وليس ذلك لعظمها ــ أى لعظم شهادة الزور ــ بالنسبة إلى ما ذكر معها من الإشراك والعقوق قطعاً "[1] .

وعطف الرسول شهادة الزور على قول الزور وهو من قبيل عطف الخاص على العام تنبيهاً إلى عظم شهادة الزور وتنويهاً بشأنه وتأكيداً لضرره .

ولا شك أن عظم الذنب يرجع إلى ما يترتب عليه من مفاسد وأضرار .

كل تلك الخصائص المستوحاة من عمق الفكرة وسمو المعنى في كلام سيد المرسلين ﷺ تشهد بأن " استعمال المجازات الواقعة في المفردات والتراكيب مما يحسن به موقع التعبير، ويقع في البلاغة أحسن هيئة ويكسب الكلام رونقاً وطلاوة ، ويعطيه رشاقة ويذيقه حلاوة "[2] .

فليعمل الناظر نظره في هذا الكلام ، فما أسلس ألفاظه على الألسنة وما أوقع معانيه في الأفئدة .

ومن ذلك قول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « يَا مُعَاذُ هل تَدْرِى مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟» ، قَالَ معاذ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فقَالَ ﷺ « فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٥/٢٦٣ المطبعة السلفية .

(٢) الطراز للعلوى ١/٧٥ مطبعة المقتطف بمصر .

يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ : ﷺ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ..... »[1] .

وفي هذا الحديث الشريف يوضح رسول الله ﷺ منزلة الشهادتين من بين الأركان الخمسة ، وأنهما دعامتان كالعمود الفقري للإنسان ، كالدعامة التي تقام عليها الخيمة ، ويثبت بها البناء ، وأنهما الركنان الأولان اللذان يطالب بهما بادئ الأمر كل من يدخل في دين الله ، وبتحقيقهما يتحقق ثواب الله ، وبإنكارهما يحق عقابه ، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وفي هذا الحوار النبوي تدرك الصلة الوثيقة بين معاني القرآن الكريم ومعاني الحديث النبوي الشريف في تقريب الأشياء وتفسيرها ، وبسطها للأفهام في أسلوب رفيع سهل المقاطع ، عذب الألفاظ واضح المعنى لمن يقرؤه في كل زمان ومكان بعيداً عن أسلوب الأمر والنهي فقد افتتح الرسول ﷺ كلامه بأسلوب من أساليب الإنشاء الطلبي ألا وهو النداء الذي يتبعه الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى وهو التشويق .

ففي الحديث الشريف نادى رسولنا الكريم ﷺ الصحابى الجليل معاذ ابن جبل ﷺ والنداء من الأساليب الإنشائية الطلبية التي : " تهيئ المنادى وتنبهه فيصغى بعناية وتشوق إلى ما يوجه إليه بعد النداء ويترقبه ويتطلع إلى معرفته والإحاطة به ، فهو طريق من طرق التشويق إلى المعنى في الحديث النبوي الشريف "[2] .

---

(١) صحيح البخاري في كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ٩٢ .

(٢) التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه د / بسيونى عبد الفتاح فيود ص٣١ مطبعة الحسين الإسلامية ط ١ ، ١٤١٤هـ .

والمعنى الذي نادى له الرسول معاذاً معنى مهم وذا بال وهو وجوب الإقرار بالشهادتين وبيان منزلتهما من بين أركان الإسلام الخمسة.

وآثر النداء بحرف النداء " ياء " الموضوع لنداء البعيد والمنادي شديد القرب منه لينبهه إلى عظم هذه المعاني التي تؤدي من أجلها وليشتد شوقه إليها ويلقى سمعه فتقع في نفسه ، وتقر بداخله فيكمل نفعها "

ويزداد التشويق بقوله ﷺ : هل تدرى ما حق ....

فقد جاء باستفهام وأعقبه باستفهام أخر لزيادة التشويق والأمر الذي شوق إليه النبي ﷺ من الأهمية بمكان ، إنه بيان لفضل الشهادتين وبيان منزلتهما .

وقد ثبت هذا المعنى في الأذهان وقر في وجدان المخاطبين لأنه جاء بعد تهيئتهم لتلقيه وتشويقهم لمعرفته ، والشئ إذا جاء بعد تمهيد له وتقديم ، وبعد تهيئة يكون أوقع في النفس وأثبت .

إنه النبي المصطفى ﷺ الذي أتته البلاغة طيعة مختارة فأوتي جوامع الكلم ، وطبيعي أن يكون رسول الهدى إمام البلغاء لما عهد في كلامه من قوة العارضة، وبيان الحجة، ووضوح اللفظ ، وصفاء العبارة .

تلك بشرى تحمل في طياتها التحذير من الشرك بأنواعه ، فإن العبد إذا تجنب الشرك جنبه الله العذاب ، وقد قر ذلك وتمكن في نفس معاذ ﷺ واستبشر به ، وأراد أن يبشر به الناس فقال : يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ فقال : له ﷺ " لا تبشرهم فيتكلوا" فلم يبشر به ﷺ إلا عند موته تأثماً أى : خوفاً من الإثم المترتب على كتمان العلم : وكأنه فهم من منع النبي أن يخبر به إخبارا عاماً لقوله : " افلا ابشر الناس " فأخذ هو بعموم المنع فلم يخبر بها أحداً ، ثم ظهر له أن المنع إنما هو من

الإخبار عموما ، فبادر قبل موته فأخبر بها خاصا من الناس فجمع بين الحكمين، ويقوى ذلك أن المنع لو كان على عمومه في الأشخاص لما أخبر هو بذلك .

وعرف الرسول الكريم ﷺ المسند إليه بالعلمية في قوله : " يا معاذ " لقصد تعظيمه وتعيينه باسمه الخاص به .

وزخر الحديث الشريف بالكثير من المحسنات البديعية من ذلك:

العكس والتبديل[1] بين قوله : " ما حق العباد على الله ؟ وما حق الله على العباد "

وقد بني هذا المحسن البديعي على أسلوب من أساليب الإنشاء الطلبي الذي أفاد التشويق والإثارة وهو الاستفهام .

والعكس والتبديل جاء في العبارة لتأكيد الكلام وفي تكرار الكلام مع عكسه زيادة إيضاح، فذلك من ألطف مجارى الكلام ومن محاسن مداخله.

ومن ذلك ما روى عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ». قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ « إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ »[2] .

فعندما أثار الرسول ﷺ هذا السؤال تشوقت نفوس الصحابة ﷺ جميعا إلى معرفة ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات فهذا مطمح يسعى إليه كل مسلم ، ولذلك ترقب السامعون الإجابة عليه وأصغوا إلى

---

(١) أن يأتى الشاعر ، والناثر إلى معنى لنفسه أو لغيره فيعكسه ويسمى هذا النوع بالمغايرة سر الفصاحة ٢٠٣ ، الطراز ١٩٨/٣ ، البديع لابن منقذ ٥٣ ، التبيان للزملكانى ١٣/٢ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الطهارة باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره ١٥١/١ وانظره في رياض الصالحين باب في بيان كثرة طرق الخير ٧٨ .

سماعه ، وعقدوا العزم على فعله مشرقة نفوسهم مبتهجةً قلوبهم عامرة بالثبات والإيمان .

إنها معان جليلة ومن أجل ذلك هيئوا لها وشوقوا لمعرفتها لتثبت في وجدانهم ويشتد حرصهم على تحصيلها .

ولمزيد من الترغيب في هذه المعاني : « إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ » يختم ﷺ الحديث بقوله« فذلكم الرِّباطُ» قاصراً الرباط عليهما .

وهذا أسلوب قصر جاء عن طريق تعريف الطرفين غرضه التأكيد وزاد ذلك التأكيد قوة عند ما كرر جملة القصر ثلاثا .

والرباط حقيقة ملازمة الثغر لحفظ عورات المسلمين وردع العدو أن يغير من ذاك الثغر عليهم .

وفي ذلك قهر للعدو الحقيقي للإنسان وهى النفس الأمارة بالسوء وقمع شهواتها وهذه الأشياء التي ذكرها المصطفى ﷺ تسد طرق الشيطان والهوى عن النفس وتقهرها وتمنعها من قبول الوساوس واتباع الشهوات ، فكانت هي الجهاد والرباط ولا يعتد بالجهاد والرباط الحقيقين بالنسبة لهذه الأعمال لأن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر"[1].

واستفتاح الحديث النبوي الشريف " بـ**ألا** " لحرص المتكلم على بلوغ كلامه نفس سامعه ، وهى تعطي الأسلوب رنة عالية قوية موقظة لتتلقى النفس أمراً جللاً .

وعبر بلفظ الجلالة " **الله** " لتربية المهابة في نفوس السامعين وليعلموا أن ما يلقى بعده من كلام أمر واجب الامتال والطاعة .

---

(١) دليل الفالحين ٣٦٦/١ لطرق رياض الصالحين لابن علان طبعة دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ .

وعطف جملة " ويرفع الدرجات " على جملة " يمحو الله به الخطايا " بعدا حذف المسند إليه في جملة " يرفع به الدرجات " للعلم به من سياق الكلام لتقدم ذكره في الجملة الأولى وللإيجاز والاختصار في الكلام .

وجاء عطف الجملتين للتوسط بين الكمالين لاتحاد الجملتين في الخبرية ولاتحاد المسند إليه والفعل في الجملتين مضارع ، ولا يوجد مانع من العطف .

وإضافة كلمة " رسول " إلى لفظ الجلالة " الله " للتشريف والتعظيم .

المبحث الثاني
من بلاغة الحوار النبوي
في القصة النبوية

ويشتمل على :

أ ـ بلاغة الحوار في القصة النبوية .

ب ـ تحليل بلاغي لبعض القصص النبوية .

(أ) بلاغة الحوار في القصة النبوية :

هناك أحاديث صيغت على شكل قصص قصيرة قصها الرسول ﷺ للعظة والعبرة ، ونجد فيها أسلوب الحوار الرائع الموحي المعبر ، وهذا طبيعي ما دامت قد وردت على شكل أقاصيص .

والحوار سمة بارزة في القصة النبوية ، وله أهمية كبيرة في بلاغة القصة النبوية حيث إنه يملؤها بالحيوية ، ويضفى عليها نوعاً من الإثارة ، ويقضى على رتابة السرد .

والحوار في القصة يفتح المجال للشخصيات لتبدى ما في أنفسها وتكشف عما في داخلها ، وتعتمد القصة أحياناً على التخييل الذي يجعل الغائب حاضراً شاخصاً مما يشعر المتلقي أنه أمام مشهد يرى لا قصة تروى ، وفي ذلك تحويل للمعنويات إلى أمور حسية مشاهدة .

ويعتمد الحوار في القصة النبوية على القصر والإيجاز والتركيز ، حيث نرى إنه لا فضول فيه ولا تكلف ، وكل كلمة فيه تؤدي دورها في بلاغة السياق النبوي .

ومن أسباب بلاغة الإيجاز في الحوار القصصي أنها قصة مروية لا مكتوبة ، ومراعاة الإيجاز في المروى أدعى لحفظه ، ولذلك كانت العرب توجز ليحفظ عنها ، ومن أسباب الإيجاز سهولة الحفظ .

فضلا عن أن النبي ﷺ قد أوتى جوامع الكلم ولذلك نجد أن القصص النبوية تمتاز ببساطة الأداء اللغوي وموضوعيته، والتعبير السهل السليم عن مضمون نفيس كريم.

ونجد أن ألفاظ القصص النبوية تمتاز بالسهولة والوضوح مما يبعث على متابعة أفكارها ، واستجلاء أغراضها ، فلا نجد في ألفاظ القصص غرابة ولا تعقيداً ولا تنافراً ولا غير ذلك مما يخل بفصاحة الكلام وبلاغته ونجد أن القصص النبوي اشتمل على نوعى الأسلوب " الخبر و

الإنشاء " و" التعريف و التنكير" و" الفصل والوصل "و" الإطناب والإيجاز" .

فكانت عبارات القصص النبوية متقنة ومرتبة ومصادفة لموقعها ومطابقة لحال سامعها .

ولذلك نجد أن أسلوب القصص النبوي يؤدى فاعليته في نفس السامعين ، ويصل إلى المقصود منه ، وما ذلك إلا لأن السامع له في كل لحظة مقدار معين من قوة الانتباه والذهن ، وهذا المقدار لابد من صرف جزء منه في تلقى ما يلقى إليه من ألفاظ وإحضار صور المعانى بإزائها.

بالإضافة إلى أن القصص النبوية تمتاز بانتقاء الألفاظ في التركيب والترتيب وتحقق فيها كل معاني البلاغة .

وامتازت القصص النبوية بحسن الافتتاح وحسن الانتقال وبراعة الختام وهذه هي البلاغة النبوية التي تصل إلى أبهى مراقي الجمال وتتميز بسمات عظيمة تبوئها من البيان مكانة عالية مرموقة وأنها تكاد تحاكى في عظمتها وإيحاءاتها ومنزلتها سور القرآن العظيم فكلام الرسول ﷺ كما يقول الرافعى :

" لا يضطرب به الضعف ولا تزايله الحكمة ، ولا تخذله رويه ولا يباينه الصواب بل يخرج رصيناً غير متهافت متسقاً غير متفاوت لا يغلب على النفس التى خرج منها بل تغلب عليه ، ولا تسترسل به المخيلة بل يضبطه العقل ، ولا يتوثب به الهاجس بل يحكمه الرأي ولا يدافع من جهاته ولا يتعارض من جوانبه ، بل تراه على استواء واحد في شدة وقوة واندفاع وتوثيق "[1] .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٠٧ .

(ب) تحليل بلاغي لبعض القصص النبوية :

وللحوار في القصة النبوية صور متعددة فمنه ما يتم بين متحاورين اثنين من ذلك ما روى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فَهُوَ يَمْشِى مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ تَبَارَكَ الَّذِى نَجَّانِى مِنْكِ لَقَدْ أَعْطَانِىَ اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ فَيَقُولُ أَىْ رَبِّ أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ لأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا. فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ يَا ابْنَ آدَمَ لَعَلِّى إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِى غَيْرَهَا.

فَيَقُولُ لاَ يَا رَبِّ. وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِىَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَى فَيَقُولُ أَىْ رَبِّ أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ لأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِى أَنْ لاَ تَسْأَلَنِى غَيْرَهَا فَيَقُولُ لَعَلِّى إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِى غَيْرَهَا. فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا. ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِىَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَيَيْنِ. فَيَقُولُ أَىْ رَبِّ أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ لأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِى أَنْ لاَ تَسْأَلَنِى غَيْرَهَا قَالَ بَلَى يَا رَبِّ هَذِهِ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ أَىْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا.

فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِى[1] مِنْكَ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا قَالَ يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّى وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ». فَضَحِكَ ابْنُ

---

(١) أي ما يمنعك عن سؤالى ؟ انظر الفائق في غريب الحديث ٢/٢٩٣ .

مَسْعُودٍ فَقَالَ أَلاَ تَسْأَلُونِّى مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا مِمَّ تَضْحَكُ قَالَ هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّى وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ إِنِّى لاَ أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّى عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ »[1] .

وأسلوب القص النبوي يعتمد على الإيجاز فهو لا يذكر من التفاصيل إلا ما كان ذا مساس بالغاية التي يهدف إليها أو كان سياق القصة يقتضيها كي لا تكون حشوا يثقل القصة ويفسد الحوار بين هذا الرجل المتحدث عنه سابقاً وبين خالقه وقد حافظ أسلوب الحوار في القصة النبوية السابقة على أسلوب العرض المشوق فنحن واقفون مشدودين أمام هذا الرجل الذي يطلب من مولاه ويأخذ ما طلب ثم يطلب المزيد وهذه هي طبيعة النفس البشرية حتى في العالم الأخروي .

وفي هذه القصة ما يكشف عن طبيعة النفس البشرية في العالم الآخر التي هي امتداد لنفسيته في هذه الدنيا ، وأن لم يذكر ذلك وإنما فهم من السياق .

اتسمت هذه القصة النبوية التي صيغت في شكل حوار قصصي هي وغيرها من القصص بالفصاحة والبلاغة والبيان ، وقوة الوضوح وسهولة اللفظ ، ووضوح المعنى ، وحسن التعبير ، وقوة التصوير .

وبدأ الرسول الكريم ﷺ بلفظ "آخر" وهذا من حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال . واللام في "الجنة والنار" للعهد أى الجنة المعهودة المعروفة التى سبق الحديث عنها في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وفي كثير من الأحاديث النبوية وتنكير "رجل" للتعميم .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب آخر أهل النار خروجاً ١/١٧٤ ، ١٧٥ ، وانظر فتح الباري ٢/٢٩٢ .

والتعبير بلفظ "رب" وتكراره في القصة السابقة للتلطف حيث إن للمربى فضل على المربى وفي ذلك استدرار عطف المولى ﷻ .

وعطف جملة وتسفعه النار مرة على جملة يكبو مرة التى عطفت على ما قبلها للتوسط بين الكمالين فالجمل خبرية والمسند إليه فيها واحد ووجدت المناسبة بين الجمل الثلاث ولم يوجد مانع من العطف .

وأكد جملة "لقد اعطاني" بلام القسم وقد التي تفيد التحقيق لتأكيد مضمون الكلام ومحتواه ، وخرج الخبر السابق من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى وهو الامتنان والاعتراف بالفضل والمنة التي أعطاها الله ﷻ لهذا الرجل .

وإظهار الاسم الجليل "الله" للتفخيم والتعظيم ولتربية المهابة في نفوس السامعين .

وتنكير "شيئاً" للتعظيم أى شيئاً عظيماً .

وجاء بقوله : "أحد" نكرة لإفادة التعميم وعبر به دون غيره من الألفاظ مثل "رجل أو امراة" للإيجاز ، فقد أوتي النبي ﷺ جوامع الكلم ، وهو التعبير باللفظ القليل الذي تحته معان كثيرة .

فهذا اللفظ متضمن معان كثيرة ، فهو يطلق على الرجل والمرأة والصغير والكبير والقوى والضعيف والحر والعبد والجاهل والعالم والعربي والأعجمي إلى غير ذلك من المعاني التي يشملها هذا اللفظ .

كما أتى بأداة النداء "اي" وكررها للإشارة إلى قرب المولى ﷻ في ذلك اليوم من عباده .

وأعقب النداء السابق بأسلوب إنشائي آخر وهو الأمر الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى الدعاء والتضرع ورجاء المولى ﷻ .

والتعبير بأسم الإشارة "هذه" وتكراره لقصد تعيينه وتمييزه أكمل تميز بإحضاره في ذهن السامع بواسطة الإشارة حساً .

والاستفهام في قوله " الم تعاهدني ان لا تسالني غيرها" خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازي وهو التقرير .

وإضافه " الأهل" إلى " الجنة" للتشريف والتعظيم من شأن المضاف والمضاف إليه.

وقوله : " ما يصريني منك " أي ما يمنعك عن سؤالي وهو أسلوب إنشائي طلبي جاء على صورة الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى وهو الإنكار التعجبي .

أما جملة " ايرضيك ان أعطيك الدنيا ومثلها معها " فالاستفهام خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى وهو التهكم والاستهزاء الذي فهمه هذا الرجل من هذه العبارة .

وقول ابن مسعود " الا تسالوني مم اضحك" .

استفهام خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى وهو الحث والتحضيض.

فقد كثرت الأساليب الإنشائية في القصة السابقة فمن أسلوب النداء إلى الأمر إلى الاستفهام وكان الغرض من كل ذلك التشويق وتحريك الأذهان لمتابعة ما ورد في القصة من حوار بين ذلك الرجل وبين رب العالمين في ذلك اليوم العصيب وهو يوم القيامة .

واشتملت القصة أيضاً على نوعى الأسلوب الإيجاز والإطناب الإيجاز جاء متمثلاً في حذف المسند إليه في قوله : " استظل ، واشرب ، واسألك ...

كذلك احتوت القصة على الكثير من إيجاز القصر فهناك أشياء كثيرة طوتها أحداث القصة بدون حذف .

وتمثل الإطناب في التكرار تكرار النداء في قول الله ﷻ " يا ابن آدم" وتكرار النداء في قول العبد " أى رب أدنني منها " ...

والتكرار من الأساليب البلاغية الجميلة ، وهو لون من ألوان الإطناب له " تأثير في عقول المستنيرين وتأثير في عقول الجماعات والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختصر فيها أفعال النفس "[1] .

واشتمل الحديث على الإطناب الذي جاء في صورة التكرار لزيادة التقرير .

واشتملت القصة على بعض المحسنات البديعية المعنوية من ذلك الطباق بين " الجنة والنار" وبين " الأولين والآخرين " .

وطباق السلب بين " أتستهزئ" وبين " أني لا أستهزئ "

ومن المحسنات البديعية اللفظية " جناس الاشتقاق بين " استظل وظلها " وجاء مكرراً في القصة " والسجع والازدواج مع بعض الألوان البلاغية تمثل في البيان النبوي الكريم جانباً من الإيقاع الصوتي وانطباع الملكة الشريفة بالذوق الفنى يزيد الكلام روعة ، ويملأ القلوب تأثراً لعذوبة جرسه وشجو رنينه ، وطيب نغمه ، حيث يدخل على الأول مشتاقة فيكون أداة به يتقرر المعنى ويسهل الحفظ[2] .

كما تأتى القصة النبوية في صورة حوار بين طرفين من البشر وذلك كثير ومنه قصة أصحاب الأخدود عَنْ صُهَيْبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا

---

(١) المنهج القويم في دراسة علوم القرآن د / عبد الغنى الراجحى ٨٩ مطبوعات كلية أصول الدين .

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية .ص ٢٣٣.

يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ ؟ فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ . وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ رَبِّي. قَالَ أَوَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ فَجِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ . فَقَالَ إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ

الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ[1] فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ[2] فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ.

فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ »[3] .

عرضت لنا القصة السابقة نماذج من الإيمان والثبات التى نراها في مواقف الراهب وجليس الملك وفي جمهور المؤمنين الذين فضلوا اقتحام

---

(١) سفينة عظيمة " النهاية في غريب الحديث ٤/٤٨ .

(٢) ما بين العين إلى شحمه الأذن ، النهاية في غريب الحديث ٣/١٧ .

(٣) صحيح مسلم ٣/٢٢٩٩ ، وانظر سنن الترمذي ٥/٤٣٧ .

النار على الرجوع إلى الكفر والغلام ، وصورة من صور الطغيان والتجبر متمثلة في الملك وزبانيته فقد اعتمد الرسول ﷺ في الحديث السابق الحوار القصصي في سرد أحداثه ، فلم يورد الأحداث بالأسلوب الخبري الجاف الخالي من التشويق ، وإنما عرض أحداث القصة في أسلوب مشوق عن طريق الأسلوب الخبري تارة والإنشائي تارة الأسلوب الخبرى في قوله : " كان ملك فيمن قبلكم ..." وعبر الرسول الكريمﷺ بالجملة الخبرية عن طريق الفعل الماضي للدلالة على أنه أمر قد كان من قبل ، ولم يبين لنا زمن الوقوع بل اكتفى بالإشارة إليه للإيجاز في الكلام ولعدم أهمية تحديد الزمن لأنه ليس من مقاصد القصة النبوية أن تؤرخ للأحداث ، بل إن ما تهدف إليه هو عرض صور ومشاهد من تاريخ الدعوة الإسلامية .

كما جاء الأسلوب الإنشائي أيضاً من أمر ونهي ونداء واستفهام من ذلك قول الناس للملك بعد إيمان الناس برب الغلام " أرأيت ما كنت تحذر" وهو استفهام تقريري يقرر حقيقة قاطعة وحاسمة وهى إيمان الناس برب الغلام وهذا ما كان يحذره الملك وقرر الناس هذا بصيغة الماضي التي تؤكد على تمام وقوعها وحدوثها .

اشتملت هذه القصة على الكثير من الكنوز والنفائس المليئة بالعبر والعظات والحكم السديدة واتسمت بالفصاحة والبلاغة والخلو من التعقيد والتنافر فقد هيأ الله رسوله ﷺ لحمل رسالته وتبليغ دعوته فخصه بجوامع الكلم ، وطبعه على البلاغة والفصاحة كي يجذب القلوب إليه فجاء كلامه قولاً فصلاً ، وكلاماً جزلاً .

ولا أدل على ذلك من الافتتاح الرائع بالجملة الخبرية المبدوءة بالفعل الماضي ، " كان" وتكرار هذا الفعل بهذه الصيغة أكثر من مرة وذلك للدلالة على أن هذا الفعل قد كان في الزمن الماضي وقد حدث ذلك

فعلاً وتنكير "ملك" للتفخيم والتعظيم من شأن ذلك الملك وتقديم الجار والمجرور في قوله " وكان له ساحر" للاختصاص أى أن هذا الساحر خاص بهذا الملك وقد أفاد تقديم الجار والمجرور هنا التأكيد والاختصاص.

وأكد جملة " إنى قد كبرت " بـ "إن" و " قد" المفيدة للتأكيد ، لتأكيد مضمون الجملة الذي يلزم من تقريره شد الانتباه إلى لازمه ، كذلك أكد جملة " فإنك إذا فعلت ذلك " لتأكيد مضمون الكلام ومحتواه وتنكير "غلام" للتصغير أي غلاماً صغيراً .

وحذف المفعول في قوله : " يعلمه" والتقدير يعلمه السحر للإيجاز والاختصار في الكلام حيث سبق ذكره قبل ذلك .

وذلك من البلاغة النبوية حيث يجمع في الكلام الواحد بين نوعى الأسلوب الإيجاز والإطناب والفصل والوصل والخبر والإنشاء وغير ذلك وهذا من بلاغته ﷺ .

وتعريف " اليوم " بلام التعريف للعهد أي اليوم المعروف المعهود الذي نحن بصدده الآن .

و"ال" في الناس في قوله ومضى بالناس " اللام للاستغراق وهى إحدى أقسام لام الحقيقة فتشمل كل فرد يتناوله لفظ الناس بحسب اللغة .

وفي قوله " اي بنى " أسلوب نداء وأتى بأداة النداء " اى" الموضوعة للقريب للدلالة على أن هذا الغلام صار قريباً منه قرب الابن من أبيه ويدل على ذلك التعبير بقوله : "بنى" للتصغير وفي ذلك تلطف به .

والتعبير بضمير الخطاب في قوله " انت " لأن المقام للخطاب .

وأكد الجملة في قوله : " إني لا اشفي أحداً " لتأكيد مضمون الكلام ومحتواه وللدلالة على قوه إيمان هذا الغلام وقوة اعتقاده بأنه سبب في

الشفاء بدليل أنه أكد ذلك عن طريق القصر في قوله " إنما يشفى الله تعالى "

فقد قصر الشفاء على الله تعالى لا يتعداه إلى غيره قصراً حقيقياً تحقيقياً فالشافي الحقيقي هو الله ﷻ وقد كرر هذا الأسلوب للتأكيد والتقرير في أذهان السامعين .

ونجد في القصة أن هناك مواضع كثيرة للإظهار والإضمار والذكر والحذف من ذلك إظهار الاسم الجليل وهو لفظ الجلالة وذكره في أكثر من موضع لتربية المهابة في نفوس السامعين .

ومن مواضع الحذف التي وردت في القصة حذف الكلمة والجملة. من حذف الجملة : قول الرجل الأعمى عند ما سأله الملك من رد عليك بصرك ؟ "قال ربى" والتقدير ربى الذي رد على بصرى ، وقد حذف الرجل هذه الجملة ولم يذكرها خوفاً من الإطالة في الكلام فالذي سأله هذا السؤال هو الملك ، ولذلك جاء جواب الملك في صورة استفهام إنكاري " أو لك رب غيري " ؟ فالملك قد أنكر على هذا الأعمى أن يكون له رب غيره .

وجملة " اللهم اكفنيهم بما شئت " جملة إنشائية طلبية الغرض منها الدعاء والتوسل إلى الله تعالى وكررت لتكرار الواقعة والحدث الذي سيقت له .

وبذلك نجد أن القصة اشتملت على نوعى الأسلوب الإيجاز والإطناب تمثل الإيجاز في إيجاز الحذف في المواضع التى ذكرنا بعضاً منها ، وتمثل إيجاز القصر في أحداث القصة نفسها فهذه الأحداث قد أخذت سنين في حدوثها سردتها لنا البلاغة النبوية في كلمات قلائل إلا أنها مؤدية للغرض وموفية للمعنى حق وفاء وتمثل الإطناب في التكرار الذي جاء في أكثر من جملة نظراً لتكرار الحدث .

ولكل من الإيجاز والإطناب أهميته في الكلام فالإيجاز نوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة " لأنه ينزل على أطراف المعانى ظلالاً خفية يشغل بها الذهن ويعمل فيها الخيال حتى تبرز وتتلون وتتسع ثم تتشعب إلى معان أخرى يتحملها اللفظ بالتفسير أو التأويل[1] .

كما أن " الإطناب واد من أودية البلاغة ولا يرد إلا في الكلام المؤتلف "[2] .

وإرجاف الجبل كناية عن تحركه واضطرابه ، والتعبير بلفظ الإرجاف أبلغ وأقوى للدلالة على المعنى ، فالجبل على ثباته وضخامته قد أرجف لما صعدوا إليه وهذا دليل على قوة إيمان ذلك الغلام .

وسقوطهم من على الجبل كناية عن موتهم وهلاكهم وانكفاء السفنية كناية عن الغرق لأن الغرق من لوازم الانكفاء والرسول الكريمﷺ بهذه الكنايات الجميلة يوضح لنا مدى قوة إيمان المؤمن بألفاظ رشيقة وعبارات عذبة بعيدة عن الألفاظ التى تحدث اشمئزازاً في النفس من سماع القصة .

وهو أسلوب تربوي نبوي حبذا لو تأسينا به فعند سرد القصص للأطفال يجب أن ننأى عن الألفاظ التي تثير الرعب والهلع في القلوب وتجعل القصة مصدر رعب لا مصدر متعة للطفل .

والكناية " وسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع ولها تأثير كبير في تحسين الأسلوب وتزيين الفكرة "[3] .

ومن المعلوم أن الكناية أبلغ من الحقيقة لأن فيها ذكر الشئ بدليله.

---

(١) دفاع عن البلاغة ٩٩ .

(٢) الطراز ٢/٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٣) الأسلوب الكناية د/ محمود السيد شيخون ٨٧ .

" إذا تأملنا نص هذه القصة النبوية وجدنا أول ما يسترعى النظر في تعبير البلاغة في هذا النص ذلك الأسلوب الفنى في البدء والختام ، فقد اعتمد فيه ﷺ على الأسلوب الإخباري وما يحمله من عنصر التشويق لتهيئة الذهن ، واستثاره العقل ، حيث قال ﷺ : " كان ملك فيمن كان قبلكم" ، وهنا يتطلع السامع إلى ما سيلقى إليه من شأن هذا الملك وأمره ، وتستمر الأخبار متوالية تكاد كل فكرة تحمل من عناصر هذه القصة غرضاً ، وخبراً مستقلاً ، وتلك طبيعة القصص من الاعتماد على السرد.

أما الختام فقد انتهى بقوله : " فقال الغلام يا أمه اصبري فإنك على الحق" ، وهنا تبرز المعالم الفنية للكلمة ، فقد جاء في هذا الختام بما يناسب أسلوب القصة من اعتمادها على خاتمة تبقى النفس مشرئبة لنهاية شأنها فيستفرغ الخيال قواه ملاحقاً خبرها وما يترتب على أبطالها من نتائج ، فقد جاء ﷺ بهذه الخاتمة وأربى على الأسلوب الأدبي في ختام ما ينسجه الأدباء من القصص ، فإن مما يكمل المعالم الفنية في القصة ما يتعمده الأديب في صناعته من إحكام لأسلوب الخاتمة على هذا النمط الذي استوحاه الأدباء من تجاربهم فمن ذا الذي علم رسول الله ﷺ تلك الطريقة في هذا التعبير ؟

أما عن الخصائص الفنية لصلب تلك القصة فقد تدرج فيه التعبير النبوي الشريف من أول فكره جاءت بعد أسلوب المدخل إلى آخر فكرة جاءت قبل الخاتمة .

فالألفاظ في طبيعتها سهلة واضحة لا التواء فيها ولا تعقيد وفي طريقة نظمها ما يبعث على التأمل والتتبع للمعاني التي تؤديها .

وأما التركيب فقد سلك بها طريقة فذة في التناول تناسب معاني القصة حيث اعتمدت على أنماط مختلفة في التعبير فمرة عبارة موجزة وأخرى مسهبة على حسب استدعاء المقام .

فقوله " قال الملك : إنى قد كبرت " أسلوبين خبريين أحدهما غير مؤكد والأخر مؤكد حسب استدعاء الحال واقتضاء المقام .

ثم يأتى بعد ذلك الأسلوب الإنشائي الطلبي الذى جاء على صيغة الأمر في قوله : " فابعث إليَّ غلاماً أعلمه السحر" ، وهكذا تنتهي القصة وأفكارها بين الأساليب الخبرية والإنشائية .

وانظر إلى إيجاز القصر في قوله : " فإنك ستبتلى" وهذا أسلوب في غاية الإيجاز حيث أوجز ذلك في هذه الجملة ولم يعمد إلى تفسير البلوى ونوعها وسببها وما سينتج عنها ، وإنما هو صمت تسير معه النفس الإنسانية ملاحقة سر هذا البلاء ونوعه وهذا شأن أسلوب القصة، إذ تحمل في ثنايا تعبيرها ما يحمل المتلقي على المتابعة .

كما استخدام رسولنا الكريم ﷺ أسلوبي الإيجاز والإطناب في قوله : " قال لا أشفى أحدا " " إنما يشفى الله " فإن أنت آمنت بالله " " دعوت الله فشفاك " إلى قوله : " فقال الناس : آمنا برب الغلام ... " وسر الجمع بين الأسلوبين في الجمل السابقة هو حمل النفوس البشرية على الإيمان بالله، وواضح من سياق هذه القصة التي جلاها الرسول الكريم ﷺ بأفصح بيان أن الغاية منها والهدف الذي ترمي إليه هو الدعوة إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، والتصديق الجازم بعظيم قدرته ، وحث المؤمن على تحمل البلاء ، والصبر عليه حتى يؤجر عليه مصداقاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] .

---

(١) سورة الزمر من الآية : ١٠ .

ثم جاءت خاتمة القصة النبوية لتبين أثر الإيمان في هداية جماعة الضالين وذلك عند ما بين كيف نجا هذا الصبي بفضل إيمانه .

ومن أبرز الأساليب البلاغية في القصة أسلوب التكرار الذي جاء عن طريق أسلوب الحوار في قوله ﷺ " فقال الملك و" فقال الغلام " و"فقال الراهب " و" فقال الساحر " " وقال الناس" ويظهر التكرار في ذكر لفظة الجلالة " الله " من قول النبي الكريم : " إنما يشفى الله " " فإن أنت آمنت بالله " " ودعوت الله "

والملاحظ على أسلوب هذه القصة قلة الصور البيانية والمحسنات البديعية والمعنوية التي غالبا ما تأتى للتحسين اللفظي كما في المحسنات أو استثارة العواطف والإغراق في الخيال كما في الاستعارة والتشبيه .

فنجد أن القصة التزمت بالحقيقة في أسلوب مطبوع غير متكلف كما اتسم أسلوبها بالسهولة والقصد ، وعدم المبالغة والتكلف والخلو من الزخرف والصناعة اللفظية التي يتعمد فيها السجع والازدواج وغيرهما من أصناف البديع إلا ما جاء من وحى الفطرة والطبع دون تكلف .

وامتازت القصة بحسن الافتتاح وحسن الانتقال وحسن التخلص ، فقد بدأها الرسول الكريمﷺ بالجملة الخبرية المبدوءة بالفعل الماضي وهو أسلوب بليغ في القصص النبوية لجذب انتباه السامعين وشد انتباههم ، ثم انتقل إلى عرض القصة وسرد أحداثها دون أن يشعر المخاطب بذلك الانتقال أثناء عرض نماذج من الثبات والإيمان يقابلها مواقف أخرى من التكبر والطغيان ثم جاء الختام على أحسن ما يكون وهو قول الغلام لأمه يا أمه اصبري فإنك على الحق ، أسلوب جميل في التعبير عن المراد حوى كثيراً من الأساليب البلاغية وعبر عن المعنى المراد أدق تعبير .

الشكر والكفران

قصة الأبرص والأقرع والأعمى

ـ عن ابي هريرة ﷺ انه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يقولُ : « إنَّ ثَلاثَةً فِي بَنِي إسْرَائِيلَ أبْرَصَ وَأقْرَعَ وَأعْمَى فَأرَادَ اللَّهُ أنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إلَيْهِمْ مَلَكًا فَأتَى الأبْرَصَ فَقَالَ أيُّ شَيْءٍ أحَبُّ إلَيْكَ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ فَأيُّ الْمَالِ أحَبُّ إلَيْكَ قَالَ الإبِلُ ـ أوْ قَالَ الْبَقَرُ شَكَّ إسْحَاقُ ـ إلاَّ أنَّ الأبْرَصَ أوِ الأقْرَعَ قَالَ أحَدُهُمَا الإبِلُ وَقَالَ الآخَرُ الْبَقَرُ ـ قَالَ فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ فَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا ـ قَالَ ـ فَأتَى الأقْرَعَ فَقَالَ أيُّ شَيْءٍ أحَبُّ إلَيْكَ قَالَ شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ.

قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا ـ قَالَ ـ فَأيُّ الْمَالِ أحَبُّ إلَيْكَ قَالَ الْبَقَرُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً فَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا ـ قَالَ ـ فَأتَى الأعْمَى فَقَالَ أيُّ شَيْءٍ أحَبُّ إلَيْكَ قَالَ أنْ يَرُدَّ اللَّهُ إلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ ـ قَالَ ـ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ فَأيُّ الْمَالِ أحَبُّ إلَيْكَ قَالَ الْغَنَمُ.

فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا ـ قَالَ ـ فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإبِلِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ. قَالَ ثُمَّ إنَّهُ أتَى الأبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أسْأَلُكَ بِالَّذِي أعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ كَأنِّي أعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأعْطَاكَ اللَّهُ فَقَالَ إنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ إنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إلَى مَا كُنْتَ. قَالَ وَأتَى الأقْرَعَ فِي صُورَتِهِ

فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لاَ أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[1] .

إنها قصة القدر الإلهي السابق ، قصة النفس البشرية القلقة الحائرة بين الشكر والجحود .

وقد عرض الرسول الكريم ﷺ القصة الهادفة في أسلوبي الحكاية والحوار .

وجاءت الحكاية تصويراً للتحول السريع الخارق الذي يمثل المفأجاة في نوع من الحل المؤقت .

وجاء الحوار موجزاً دالاً مصوراً يمثل العقدة .

والمشاهد الثلاثة مشتابهة ومتماثلة في الأحداث الأولى من القصة فكل بطل من أبطال القصة يعانى من النقص البشري ويتشوق إلى البرء من هذه النقيصة لاعتقاده أن الناس يستقذرونه ، والذي زاد من وطأة الشعور بالحقد والحسد للأبرياء أيضا الفقر .

ثم جاء بعد ذلك المشهد الثاني وإذ بحالهم تتبدل فإذا بأشكالهم حسنة وقد اغتنوا فهناك أودية فيها إبل ترعى ، وبقر يخور وغنم يملأ بثغائه سماء الوادي .

---

(١) البخاري في كتاب الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل ١٧١/٤ ، ومسلم في أول كتاب الزهد والرقائق ٢١٣/٨ ، ٢١٤ .

وعند تمام النعمة هنا يبدأ الاختبار وعند ذلك يتشوق القارئ أو السامع ما أصاب كل متهم بعد البلاء ثم الإنعام .

ثم تأتى المشاهد التالية تذكر هؤلاء الثلاثة بماضيهم في صورة هذا الرجل المسكين لعلهم يشكرون فضل الله عليهم ويعرفون نعمته .

وهنا تتغاير الفطر ولا تتماثل النتائج لعدم اشتراك النفوس في استعدادها لمعاني الخير من الصدق والشكر والوفاء واعتمدت المشاهد على الحوار الحاد المصور للجحد البالغ من الشقي المحروم والصدق البالغ من السعيد الموفق .

وهذا ما يجعلها تلجأ إلى الله بالضراعة تسأل الله العافية من البلاء والثبات عند البلاء وشكر النعمة وهذا ما تمثل في شخصية الأعمى وبخاصة في الابتلاء الإلهي ، فقد طلب ما هو ضروري إنه يطلب البصر الذي ينقذ من العجز ، فالخيرية متأصلة في هذا الرجل فهو عندما طلب الغنم وهى آنس البهائم ولم يطمع في الربح الوفير وطلب البقر والغنم كسابقيه فقد تمثلت فيهما صفة الطمع بالإضافة إلى الكذب في ادعاء توراث المال والتعالي والكبرياء .

والملاحظ في القصة أن " ثم " جاءت للترتيب لا للتراخي وذلك لأن المحاور ملك فيتصور الدارس أن الزمن ليس بطويل في محاورة الرجال الثلاثة و" الفاء " في قوله : فمسحه فذهب عنه " فاء تعقيبية تدل على سرعة الحدث وهذه السرعة الزمنية تناسب طبيعة الملك والقدرة الغيبية بأمر الله .

وفي القصة أحداث كثيرة أوجزتها ولم تذكرها اعتماداً على ذكاء القارئ حيث طال الزمن لسنوات فولدت الإبل والبقر والغنم وحصلت بذلك استرجاعات زمنية رائعة بلورها الحوار حينما ذكّر الملك الأقرع والأبرص بالنعمة .

وبدأ الحوار ثنائياً بين طرفين الملك وكل واحد من هؤلاء الثلاثة لوحده ، وبدأ الملك الحوار بالسؤال عن أهم مشكلة يعانيها كل واحد منهم، ثم كان الجواب سريعاً دالاً على لهفة المسؤول .

وحُذف المبتدأ من قوله : لون حسن وجلد حسن .

كما حُذف المبتدأ أيضاً عندما سأل الملك السؤال الثاني وهو ما يلزمهم من ضرورة مالية تعين على الاستمرار في الحياة وكان الجواب كلمة واحدة حُذف المبتدأ " الإبل"

وقوله ــ بارك الله لك فيها ــ جملة إنشائية طلبية دعائية جاءت على صورة الخبر إشارة إلى تحقق الوقوع .

وجاء الإطناب على صورة التكرار في سؤال كل من الأبرص والأقرع والأعمى " اى شئ احب إليك " ؟ للترغيب الشديد ، وللإشارة إلى أن القوة الغيبية لا تتأثر بتغير الأحوال .

وفي قوله " رجل مسكين " أسلوب خبري غرضه الاسترحام والاستعطاف وحذف المبتدأ والتقدير أنا رجل مسكين" ليؤكد ضآلة الطالب المحتاج أمام الغنى ونلاحظ في القصة الإطناب في كلام الملك والإيجاز في كلام الأبرص ، ليبين أن الحاجة تفتق اللسان والبخل ينزع إلى الترفع عن إطالة الكلام مع الفقراء .

ثم يجئ بعد ذلك أسلوب القصر الذي يفيد التوكيد في قوله : " فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك " كما قدم ذكر الله ثم ذكر الأبرص لتذكيره بالنعمة الربانية التي تناساها .

وجاء بقوله " الحقوق كثيرة " على طريقة الأسلوب الخبري الخالي من التأكيد وذلك لأن الأبرص أراد أن يوهم السائل بأن قضيته لا تحتاج إلى توكيد واستخدام أداة التشكيك " كان " وذلك لأن الملك أراد أن يوهم الأبرص بأنه يتشكك برؤيته قبل هذا اللقاء .

وأفاد أسلوب الشرط في قوله : " إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت " وهذا التعبير يفيد غمزا للأبرص وتعريضاً به ينال كبرياءه ويشير لكشف تزييفه وأفاد الشرط هنا اليقين القابل للاحتمال والوقوع ويكرر الحوار مع الأعمى بذكر السؤال والاسترحام لكن جوابه يأتي على عكس صاحبيه ، فيعترف بماضيه المؤلم ويؤكد الإقرار بالنعمة الربانية .

ويتضح كرم الأعمى في قوله : " خذ ما شئت ودع ما شئت " إنه إطلاق يعبر عن تواضع ووفاء أمام كرم الله ﷻ .

ثم يؤكد الملك له أنه نجح في الابتلاء فقال : " إنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك .

وساق هذا في أسلوب المقابلة الجميلة ، فكان ختام الحوار جميلاً معبراً في مشهد الأعمى إذ يتلقى أعظم البشارة لأنه رضي الله عنه ، وليعطي درساً بليغا زاجراً في كفر النعمة وجحودها وسخط على صاحبيك[1] .

وأسلوب المقابلة من الأساليب المحببة إلى النفوس حيث يقود إليها الطبع فترد في الكلام سمحة منسابة ولعل السر في حسنها : أنها تعين على تجلية الحقائق وإبرازها .

---

(١) في ظلال الحديث النبوي دراسة فكرية اجتماعية وأدبية جمالية معاصرة ٣٤٧ : ٣٥٣ الطبعة الثانية ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

الخاتمة

وبعد هذه الجولة في رحاب بلاغة الحوار النبوي ، والتأمل فيما اشتملت عليه من أسرار بلاغية ووسائل تربوية ، نجد أننا أمام بحر زاخر بآيات الحسن والجمال البلاغي الذي امتاز به كلام أفصح الخلق ﷺ وبه فاق غيره من كلام البشر.

ولولا ضيق البحث وكونه محدودا في صفحات محدودة لاستزدنا من هذا المعين الذي لا ينضب من فيض بحر بلاغة من لا تدانيه بلاغة بشر.

وبذلت من الجهد ما رأيت أن ثمرته تكفي أن تكون معلما من معالم بلاغة الحوار النبوي.

فقد تعرضت لطائفة من أحاديث الرسول ﷺ التي اعتمد في سردها على أسلوب الحوار سواء أكان ذلك عن طريق إلقاء جملة غريبة على السامعين تثير تساؤلا في أنفسهم أو عن طريق استعمال أساليب التشويق من استفهام أو نداء أو غير ذلك أو عن طريق الأسلوب القصصي وبما يمتاز به من الوضوح والإيجاز أو الإطناب على حسب ما يقتضيه المقام.

ووضح من خلال البحث ما يلي :

١ـ أن معظم الأحاديث التي تناولتها قل فيها استعمال العبارات المجازية والأساليب التصويرية والمحسنات البديعية ، ومع ذلك كان يثير الخيال لأنها أساليب حوارية تدعو إلى تصوير مشاهد وحركات سماعية ونفسية وخرجت في قمة البلاغة والفصاحة من حيث اختيار ونظم الألفاظ والبعد عن التكلف والسهولة والوضوح والبعد عن الغرابة وحسن إحالتها وجدتها وابتكارها .

أ ـ أن أساليب الحوار النبوي معين لا ينضب في استخراج وتطبيق القواعد البلاغية ، واتخذ العلماء منها مجالا خصبا لإثراء القواعد البلاغية فالسنة تقف وراء القرآن الكريم في أهميتها وبلاغتها .

٣ـ أن أنسب المناهج في الدراسة البلاغية للأقوال النبوية أن تحلل الصورة بكل جزئياتها التي تشتمل عليها من معان وبيان وبديع ، إذ الفصل بين الصور يؤدى إلى تشويه المعنى أو اقتضابه ، وبلاغة الرسول ﷺ إنما هي بلاغة معان وأهداف قبل أن تكون بلاغة صور وألفاظ.

٤ـ أن الرسول ﷺ بلغ القمة في الفصاحة والبلاغة وكان يرتضى أسلوب الحوار دائما ويعمل على إثارته لما فيه من الحيوية والجمال ، والشئ الذي يستحق التسجيل أن الحوار إنما يطلب في الكلام الطويل والقصص والروايات ، أما أن يكون في مثل هذا الخبر الضيق والكلام القصير ، ويكون بمثل هذا التوفيق ومثل هذه البلاغة الفائقة فهو محل التقدير والإعجاب.

٥ـ تنوعت الأساليب التعبيرية في الأقوال النبوية وفاء بحاجة الطبائع البشرية المتفاوته من شخص لآخر ، بل عند الشخص ذاته فمن الناس من يقنع بأسلوب الإثارة كالأسلوب الإنشائي ومنهم من يكفيه الأسلوب الهادئ الوادع كالأسلوب الخبري ومن الناس من يحتاج إلى الأسلوب التصويري ، وزخرت الحوارات النبوية بما يتناسب مع كل فئة.

من الملاحظ قلة التصوير البياني في حوارات الرسول وذلك للحاجة إلى الأسلوب الصريح الواضح.

ـ كانت المحسنات البديعية لها دور في بناء الحوار النبوي وتكوينه ولم تأت لمجرد الحلية والزينة اللفظية.

وبعد : فأرجو أن أكون قد استطعت أن أكشف بعض اللثام عن البلاغة النبوية ، بعد هذه الجولة المتواضعة ، والتي طوفت من خلالها في رياض الحوار النبوي.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصا مخلصا لوجهه الكريم ، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس مصادر البحث ومراجعه

١ - أدب الحديث النبوي د/ بكرى شيخ أمين ، دار الشروق الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٢ - الأدب النبوي في ضوء العلم الحديث دراسة في علم السلوك الإسلامي د/ صابر طعيمة دار الجيل . بيروت ١٤٠٧هـ . ١٩٩٧م .

٣ - أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى تحقيق د/ محمود شاكر دار المدنى ١٤١٢هـ . ١٩٩١م .

٤ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى . الطبعة الثامنة .

٥ - أمالي الصدوق للشيخ الصدوق محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمي الطبعة الأولى . مؤسسة الأعلمى . بيروت .

٦ - البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجى . القاهرة واستعملت طبعة أخرى تحقيق السندوبى .

٧ - تاريخ آداب العرب للرافعى دار الكتاب العربى . بيروت . لبنان.

٨ - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبى الأصبع المصري ٨٥٠ هـ ٦٥٤ ، تقديم د/ حفنى محمد شرف يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضه القاهرة ١٩٨٣م .

٩ - التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه د/ بسيونى عبد الفتاح فيود مطبعة الحسين الإسلامية . الطبعة الأولى ١٩٩٣م - ١٤١٤هـ .

١٠ - تيسير الوصول لابن الربيع الزبيدي طبعة الحلبى ١٣٥٣هـ .

١١ - جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي . الأهرام التجارية .

١٢ - جوهر الكنز تحقيق محمد زغلول إسلام - دار الكتاب العربي ١٩٢٩م.

١٣ - الحديث النبوي . مصطلحه بلاغته . كتبه : محمد الصباغ المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ . ١٩٨٢م .

١٤ - الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د/ عز الدين على السيد. دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢هـ . ١٩٧٣م .

١٥ - الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه د/ منى إبراهيم اللبودي . مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م .

١٦ - الخصائص الفنية في الأدب النبوي د/ محمد بن سعد الدايل مكتبة العبيكان . الطبعة الثانية .

١٧ - الخصائص لابن جنى تحقيق : محمد علي النجار . المكتبة العلمية . بيروت . لبنان .

١٨ - دلائل الإعجاز تحقيق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة . بيروت .

١٩ - دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان . دار الرياض للتراث الطبعة الأولى ١٤١٤هـ . ١٩٩٣م .

٢٠ - روائع من أقوال الرسول ﷺ دراسات أدبية ولغوية وفكرية تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى، دار القلم . دمشق الطبعة العاشرة ١٤٢٦هـ .

٢١ - رياض الصالحين للنووي . نشر مصطفى عمارة .

٢٢ - شرح أحاديث من صحيح البخاري . دراسة في سمت الكلام الأول د/ محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة . ٢٠٠٠م .

٢٣ - صحيح البخاري . مطبعة دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان .

٢٤ - صحيح مسلم بشرح النووي . دار الخير . بيروت . الطبعة الأولى ١٤١٤هـ . ١٩٩٤م واستعملت طبعة أخرى المطبعة المصرية ومكتبتها .

٢٥ - صحيح مسلم الجامع الصحيح تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى طبعة إحياء الكتب العربية . مصر الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ . ١٩٥٦م .

٢٦ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف د/ أحمد باسوف دار المكتبى الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ. ٢٠٠٦م .
٢٧ - الطراز للعلوى تصحيح سيد بن على المرصفى . مطبعة المقتطف بمصر .
٢٨ - فتح الباري لابن حجر العسقلانى . المطبعة السلفية .
٢٩ - فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته د/ عادل البدرى . دار الأثر بيروت. لبنان . الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٢م .
٣٠ - في ظلال الحديث النبوي د/ نور الدين عنتر دراسة فكرية اجتماعية وأدبية جمالية معاصرة الطبعة الثانية ١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م .
٣١ - اللغة والتفسير والتواصل د/ مصطفى ناصف . طبعة الكويت ١٩٩٥م عالم المعرفة .
٣٢ - مسند الإمام أحمد مؤسسة الرسالة. بيروت ١٤١٣هـ .
٣٣ - المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني . مكتبة ابن تيمية القاهرة . مصر الطبعة الثانية واستعملت طبعة أخرى تحقيق حمدى عبد الحميد دار إحياء التراث العربى . بيروت. لبنان .

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــوع	الصفحة
المقدمة ----------	٧٣٩
التمهيد ----------	٧٤٣
أ – نبذة عن فصاحة الرسول وبلاغته وأسباب ذلك ----------	٧٤٣
ب- الحوار تعريفه وأهميته ومكانته في الإسلام والمجتمع المعاصر ----	٧٤٩
المبحث الأول :	
الأساليب البلاغية فى الأحاديث النبوية التى تشتمل على أسلوب الحوار --	٧٦٧
١- أن يأتى الرسول ﷺ بجملة غريبة تبدو كذلك لأول وهلة فتشد انتباههم وتثير اهتمامهم وتجعلهم يتساءلون ----------	٧٦٩
٢- أن يوجه الرسول ﷺ إلى الصحابة ﷺ سؤالاً ويستمع إلى أجوبتهم ثم يناقشهم في هذه الأجوبة ويبين لهم الصواب ------	٧٩٤
٣- أن يورد الرسول ﷺ السؤال بشكل مشوق يرغبهم فى أن يعرفوا الجواب ----------	٨٠٧
المبحث الثاني :	
الأساليب البلاغية في قي القصة النبوية ----------	٨١٥
* نبذة عن بلاغة الحوار في القصة النبوية ----------	٨١٧
- الأساليب البلاغية في قصة آخر رجل يدخل الجنة ----------	٨١٩
- الأساليب البلاغية في قصة أصحاب الأخدود ----------	٨٢٣
- الأساليب البلاغية في قصة الأقرع والأبرص والأعمى ---------	٨٣٣

الموضـــــــــــوع	الصفحة
الخاتمة	٨٣٩
فهرس مصادر البحث ومراجعه	٨٤١
فهرس موضوعات البحث	٨٤٥